طالب الرفاعي

رواية

في الهُنا

PLATINUM book

رواية

في الهُنا

Here and Now

طالب الرفاعي

Taleb Alrefai

إشراف عام:

أحمد الحيدر - شمايل بهبهاني

تصميم الغلاف:

محمد العنزي

إخراج وتنفيذ:

علي فياض

تأليف:

طالب الرفاعي

مكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 2014 / 674

ردمك: 6 - 36 - 48 - 99966 - 978

خدمة التوصيل المجانية - بلاتينيوم بوك

(+٩٦٥) ٥٥٥٨٣٥٥١



www.platinum-book.com

الطبعة الأولى نوفمبر 2014

فـي الـهُـنا

Here and Now

إلى زوجتي شروق

حبيبة وصديقة مخلصة

- ١ -

وحدي، هُنا في غرفتي رقم «٣٣»، في الدور الأول، من مبنى «المدرسة القبلية»، التابع للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، في منطقة «المباركية»، قرب أسواق الكويت القديمة. يلازمني ألم «الدسك» في ظهري. يقرصني فيسري نبض التنميل والخدر إلى ساقي اليسرى. أنصاع إليه، أهبّ من مقعدي، أقف بين ساعة وأخرى ، أتمشى عادًّا خطواتي في صحن مكتبي. أحرك جذعي أتمايل يمنة ويسرة.

(قلتْ اوقفي لي وإرفعي البوشيّة   خليني أروي ضامر العطشاني)

شجيًّا لوّحته السنون، ينساب صوت المطرب «محمود الكويتي»، ينتشر ملوِّنًا جدران غرفة مكتبي المغلقة، يترنم بلحن حمد الرجيب، ل «سامرية»، الشاعر خميس بن محمد الشمّري.

قلتْ اوقفي لي وإرفعي البوشيّة

لحظة خطرت لي فكرة الرواية، قفز اللحن لرأسي، أمسك بي، راح ينبعث بين آن و... ومرارًا تساءلت: ما الذي يأتي باللحن إليَّ مصاحبًا للكتابة؟

تتسرب نغمات «العود» آخذة طريقها إلى قلبي. أتخيل وَلَه خميس الشمري بمحبوبته، ورغبته المحرِقة، وتذرعه متوسلًا إياها أن تهب واقفة ليراها تتهادى راقصة أمام عينيه، بعد أن ترفع «البوشيّة» كاشفة عن وجهها، علّه يروي عطش روحه!

خليني أروي ضامر العطشاني

محيّرٌ يرقص أمامي السؤال: أي سرٍ يجعل الجسد وصلًا يُروِّي ظمأ حارقًا يكاد يحطّم روح صاحبه؟

صباح كل يوم أدخل غرفتي وأغلق باب قلبي عليَّ. أُمضي ساعات نهاري بين القراءة والكتابة.

قبل قليل اتصلت بي كوثر، رأيتُ رقمها على شاشة تلفوني النقّال:

«ألو».

قلتُ، فأسرع صوتها:

«صباح الورد».

ودودٌ حسّها، حرّك شيئًا من سرور غافٍ في صدري، فحييتها:

«وصباحك».

«سأمرّ عليك».

«متى؟».

«لا أدري».

قالت على طريقتها التي أعرف، وأضافت:

«يمكن غدًا، لست متأكدة».

«يا هلا».

«أخبار فادية؟».

قاطعتني سائلة عن ابنتي الصغيرة، فمرَّ الابتسام على وجهي:

«تعالي لزيارتنا في البيت لرؤيتها».

«سأفعل، سلامي لها ولشروق».

وكما انبعث صوتها فجأة انسحبت قائلة:

«باي».

عدتُ إلى هُناي راميًا روحي على بساط اللحن الناعم، بينما رفع الهدوء رأسه ثانية يغشي غرفة مكتبي، ومن ركنها أطلت الوحدة تشير لي فاتحة صدرها، وهامسة بخبث:

خليني أروي ضامر العطشاني

-٢-

«إذا استلمتُ ورقةَ..».

همستِ أنتِ تُحدثين نفسكِ، فلسعت العبارةُ لسانكِ. هزّة خوفٍ عابـرة ألجمت الكلام في فمك وخاطـرك. وكما لو أنك تهربين من تكملـة الجملـة، عُدتِ لاسترسـالك بأفـكارك، واسترخائك على فراشـكِ، وسـط صمتٍ غـافٍ يلفّ غرفـة نومكِ. ما زلتِ تشـعرين بشـيء من الوحشـة يشـاركِكِ لحظتـك. قرابة نصف السـنة مضت عليكِ وأنتِ تنامين وحدك هُنا، في شقتك الخاصة.

يمرّ السـؤال بكِ: كيـف تألف وتطمئن أرواحنـا للمكان؟ كأنك زائرة جئتِ بالأمس إلى الشـقة! متى سـتنعقد العلاقـة بينكما؟ متى ستمشـين دون حذرٍ، تسـلك خطوتك دربها خفيفة عارفة انحناءات الزوايا الماكرة، كما كنتِ تمشين في بيت «الدسمة».

هناك، في بيت أبيك في منطقة «الدسـمة» ولدتِ وذاقت قدماك الصغيرتـان رجفة الوقـوف الأول المتأرجح على اسـتواء الأرض،

ودبتا بخشـية الخوف تتعلمان سرّ المشـي.. في ذاك البيت ركضتِ طفلـة مدللـة. حفظت خطوتكِ رسـم المكان. وعلـى مهلٍ تخللت رائحة بيتكم الدافئة مسامّ روحكِ، ولم تزل تسكن قلبك!

أضواء الساعة الحمراء المشـعة قرب رأسكِ تشير إلى الخامسة والربع فجرًا. الشمس في الخارج تتمطى بكسل، تقاوم كشف ضياء وجهها.. البحر ينتظر تحيتكِ الصباحية اليومية خلف ستارة النافذة، مثلما تنتظرين أنت رؤية منظره بامتداده على حد بصرك.

نظرتِ إلى السقف، فتحرك السؤال مكتومًا في فمك: هل أنا خائفة؟

-٣-

أنتَ مشاري، شخصية مرموقة في المجتمع، باسمك ولقب عائلتك العريق، وعائلة زوجتك، ونفوذ وظيفتك. مظهرك الرجولي يشعّ بالجاذبية، ويجعل أقرب العاملين معك يقف معجبًا بهدوئك وأدبك ولباقتك. أنتَ «شاطر»، راسم صورتك بامتياز. هيبتك ووسامتك ونظرة عينيك، وملابسك الأنيقة وساعة يدك وحذاؤك اللامع وخطوة مشيتك.. أنتَ من الخارج تغري أي فتاة أو امرأة بالتمسح فيك.. أنا كوثر رفعت عنك غطاءاتك الهشة، وعرفتك: «من بره هالله هالله ومن تحت يعلم الله». لكن، هل فعلًا عرفتك؟ أحيانًا أشعر أنني أعرفك تمامًا، ويغمرني الحزن في مرات كثيرة حين أكتشف كأني لا أعرفك!

كأن الليل والنوم كوّما أتربة الخوف فوق قلبي. استيقظتُ في غرفتي وعلى سريري، والأسئلة تفحّ ممددة إلى جانبي، وكأني لم آخذ قراري وأحسم أمري! اليوم سنعقد قراننا. أخيرًا تصبح زوجي وأصير أنا زوجتك بورقة شرعية.

فـي وقتٍ ما، أطلقـت عليك بيني وبين نفسـي لقب: رجل اللذة العابـرة. تعشـق كل ما يمرّ عابـرًا دون تبعات. فـي أول مكالمة بيننا بصفتـي المسـؤولة عن حسـابات الشـخصيات المهمة فـي البنك، نقلتَ لي قناعتك عن تعاملات الأسهم في سوق الأوراق المالية:

«تخلّصـي من أسـهمي بمجرد ارتفـاع أسـعارها، لا أطيق البقاء مربوطًا إلى سهم».

لا تطيق أن تكون مربوطًا إلى أي سهم، ولا أي امرأة.. أنتَ رجل يريد لسـمعة حياته الزوجية في العلـن أن تبدو ناصعة البياض، تنعم بالاستقرار والهدوء بعيدًا عن أي أقاويل أو إشاعات، ويريد لقلبه أن يخفق بمتعة اللهو مع أي امرأة أخرى غير زوجته.

قبل ثلاثة أشـهر، صادفتك تمشـي مع زوجتـك المتأنقة وابنتك الصغيـرة في الجزء الجديد من مجمّـع «الأفنيوز». فجأة اهتزّ قلبي، كأن إصبعًا حادة طرفت عيني. عصفَ الضيق بصدري، وأمسكَ ثقل البطء بخطوي. لا أدري ما الذي جرى لي! تذكرت وعودك لي، وأننا على وشك الارتباط. جاءت إليَّ هيئة وجهك المتباكي وأنتَ تقسم أنـك لـم تحب بحياتك امرأة إلا أنا، وركـض أمامي الكثير. تبعثرت لا أعرف ماذا أفعل! أردت أن أتقدم للسـلام عليك، أمدّ كفي إليك، ناظـرة في عينيـك اللتين أعرف، أقـول لك بنبرة تزلزلـك: ما دامت رغبتـك أن تبقي عليهـا وتجمع بيننا، فلا ضير عندي أن أشـترك مع هذي السيدة في الزواج منك.

الآن، يأتيني السؤال المشاغب لأول مرة: هل يجمع رجل متزوج امرأتيه في سرير واحد في لحظة الحب؟ ربما سيكون مثيرًا أن تتمدد بيننا نحن الاثنتين على فراش واحد. ما المانع، امرأتان تتشاركان في رجل؟

في ذلك اليوم، وأنا أراقبك تمشي بخطواتك الهادئة ممسكًا بكف زوجتك، نهشت أنياب الغيرة قلبي، وخمطت الحسرة هدأة روحي. وقلت لنفسي: لم نتزوج بعد وأكاد أحترق بنار غيرتي، فكيف سيكون حالي بعد الزواج؟ دار ببالي حال زوجتك، تصوّرت صدمتها لحظة تعرف بعلاقتك بي، وقلت: مؤكد أنها ستفقد عقلها حين تعلم بزواجنا. وستردّد بحرقة تشكو لأمها أو إحدى أخواتها بدموع وجعها: «الحقير خانني»، وسينعطف حسّها تكاد تبلع لسانها وهي تقول: «تزوّج عليَّ». وأكاد أجزم أنها ستضيف بعد ثوانٍ وقد عربدت الدهشة بوجهها وحسّها: «تزوّج شيعية»، ستقول كلمة «شيعية» وكأنها سُبة.. ستترك صفعة خيانتك لها وارتباطك بامرأة ثانية ليتحول ذهنها إلى زواجك من شيعية، وكأن زواجك من سنية أو مسيحية سيكون مقبولًا لديها!

في ذلك اليوم بقيت أسرق خطواتي على البعد. أمشي خلفكم مشتتة بصراخ ضيقي وتلاطم أفكاري، لحين اخترت أنتَ أو ربما هي مطعم «لونوتر» الفرنسي، وما إن جلستم، حتى طلبت أنا من الشاب اللبناني المسؤول عن جلوس زبائن المطعم طاولة لشخصين، وأشرت إلى الركن الذي يمكّنني من كشف طاولتكم،

ويمنع عنك الالتفات لرؤيتي. لحظةَ جلستُ دار ببالي الانسحاب، شعرت أنني لا أحتمل البقاء في مكاني ومشاهدتك جالسًا معها. وقلت: الأيام القادمة ستكشف لهذه المرأة كل شيء، وستجعلها تتعرف على حقيقتك.

رحت أنظر إليكم وحديثكم الهامس. هادئة ومسالمة بدت لي زوجتك. تأملتها ولحظتها انغرس السؤال نصل سكين في خاصرتي، وأحدّث نفسي قلت: ما ذنب هذه المرأة، وهذه الطفلة؟ تضايقت من نفسي، لكن نار قلبي المستعرة أنهضتني لأخطو باتجاه طاولتكم. وقفتُ أمامك، فخمشت دهشة المفاجأة ماء وجهك، مددت نحوك كفي الراجفة بغضبها:

«مساء الخير أستاذ مشاري».

لا أدري كيف ولا من أين جاءت كلمة أستاذ التعيسة لتندس في جملتي. حاولت أنتَ تمالك نفسك، نهضت تصافحني، ومن بين أسنانك دفعت:

«أهلًا».

ابتسمتُ لزوجتك قائلة:

«أنا كوثر».

لم ألتقط ما تمتمت به، فخفق قلبي كان أعلى من نبرة صوتها، لكني شعرت أن ضيقًا ما قد عصف بصفحة وجهك. ولكي لا أطيل أشرت إليك قائلة:

«تفضل».

وأنظر في عينيها قلت:

«فرصة سعيدة».

همست لنفسي: «طز فيكما أنتَ وزوجتك». لكني بعد أن خطوت مُنسحبة، انتبهت أنني لم أحيّ ابنتك، ولكي أزيد من ارتباككما، عدت ثانية لأسلم على الصغيرة، ماسحة على رأسها:

«حبيبتي، أنتِ حلوة تشبهين بابا».

تركت المطعم وخرجت أداري انفعالي بعد أن تأكدت أنني لطّخت متعة خروجكم العائلي بطين المفاجأة. يومها، ولحظة ركبت سيارتي خرّت دمعتي، ومعها تفجّر ضيقي منك ومن نفسي!

اتصلت أنتَ بي أكثر من مرة، وتعمدتُ تجاهل الرد عليك، كنتُ متضايقة لا أكاد أطيق أنفاسي. تملأ العبرة صدري توشك أن تخنقني. وكأني أكتشف للمرة الأولى أنك متزوج، ولك حياتك مع زوجتك وأطفالك. شيء واحد ظل يعزّيني وهو إحساسي أنني ضايقتك، وكنتُ أتلذذ بأن أتركك تغلي، يتصاعد بخار ضيقك ليملأ صدر روحك، دون أن تتمكن من نفخه في وجهي. وكنتُ أشعر بشيء من الرضا أنني قدمت الجرعة الأولى من الصدمة لزوجتك.

منذ زرتك أول مرة في مكتبك، وأنت تلاحقني راجيًا:

«نلتقي».

لـم يكن يمـرّ يوم دون أن تلوّن رسـائلك هاتفـي النقال: «صباح ورد الحب» ، «صباح الشـوق»، ترسـل رسائلك بين ساعة وأخرى: «ليـش أنا أشـتاق وأنتِ؟؟؟»، «أنتِ بخيلة!» تبعـث لي على بريدي الإلكتروني روابط أغاني الحب، في الصباح أغنية منعشـة، وأخرى في المسـاء حاملة، وبعض قطع عزف الساكسفون بين وقت وآخر. لـم أكن أعرف كيـف أرد عليك، لكن جزءًا من روحي كان مسـتلذًّا باهتمامك وملاحقاتك، وجزءًا آخر كان واقفًا عند تصرفاتك.

مساء كنا معًا في سيارتي نمرّ في شارع «جمال عبدالناصر» قرب مستشـفى «الصباح»، دار ببالي أنك تخرج معي وأنت متزوج، فطفر مني سؤالي:

«أترضى لزوجتك الخروج مع رجل؟».

انتفضـت كمـا لو أن عقربًا لدغك. اعتدلـت ملتفتًا إليَّ وقد أطلّ شـيءٌ كريه في نظرة عينيك. لطم كف الغضب جانب وجهك، اهتز الزجر بنبرة صوتك:

«الزمي حدودكِ!».

أغاظتنـي عبارتك بوقاحتك. تصحبني في موعد غرامي جالسًـا في سـيارتي وتهينني! تدفع عن زوجتك أن تكـون مثلي! وأنا أغلي خففت من سـرعة السـيارة لحين توقفت على جانب الطريق، قرب مدخل المستشفى، وصرختُ بك:

«انزل».

رحت تنظر إليَّ غير مصدقٍ وقد هزّتك المفاجأة! فما كان مني إلا أن نزلت حافية؛ لأستدير إلى جهتك، أفتح الباب مكررة صرختي بك:

«انزل».

تركتك واقفًا تلفّك حيرة الدهشة، وتحركت بسيارتي شاعرة أنني تخلّصت منك، رميتك كأي ورقة «كلينكس» متسخة على رصيف المستشفى.. تناولت علبة سجائري لأدخن سيجارة، علّني ألوّث بدخانها الأسود صورتك في صدري.

الآن انتهى الأمر يا مشاري.

بالرغم من كل شيء، أنا من اتخذ قرار زواجنا! أنا متأكدة، لو رجع الأمر لكَ، لسعدت بأن أبقى عشيقتك وكفى.. اليوم، ربما بعد ثلاث أو أربع ساعات سنعقد قراننا. أمسك بيدي الورقة الشرعية التي لابدَّ منها كي أصير زوجتك، وأحمل منك ويُنسب ابني لاسمك.

عجيبةٌ ورقة الزواج! بوابة في جدار عالٍ تتسع لمرور شخصين. ما قبلها مرحلة ومشاعر وعالم، وما بعدها شيء آخر.. من كثرة ما سمعت عن المشاكل التي تقع بعد الزواج، أتخيّل وكأن هذه الورقة نحس على العلاقة بين الرجل والمرأة. شيء شيطاني يختفي في حبر ورقة الزواج قائلًا للرجل: هذه المرأة أصبحت جاريتك وملكك الخاص، ولك أن تفعل بها ما تشاء. ويشير للمرأة: هذا الرجل صار خاصتك وعليك بملاحقته.

كيف ستكون معي يا مشاري بعد عقد قراننا؟ أسئلة الخوف التي استيقظت معي منذ الفجر، لا زالت تحوم حولي!

الدين الإسلامي، يشترط شاهدين على الزواج؛ رجلين مسلمين عاقلين، وأنا اخترت شاهدين، وكلاهما غير كويتي. أنتَ لا تريد لخبر زواجنا أن ينتشر. قلت لي بنبرة فاترة:

«على الأقل ليس الآن».

بلعت إهانتك ورحت أنظر إليك مستغربة، لا أدري كيف فاتك وأنت الرجل الفطن أن خبرين لا يمكن إخفاؤهما: الموت والزواج. ولأني شبعت نقاشًا عقيمًا معك، وكرهت بقائي وحيدة ومشتتة، وافقت على أن يتم زواجنا سرًّا. قبلتُ بإهانة الزواج السري؛ لأن قلبي تعلق بك، ولأنك تطاردني بحبك وإصرارك على ارتباطنا؛ ولأني ما عدت قادرة على تجرع مرِّ التصبّر وسياط الانتظار ولقاءات الخلسة والخوف وتهديدات عمي باقر.

اخترت هريدي حارس البناية المصري، وعلي سائق التاكسي اللبناني الذي يأخذ خادمتي إلى الكنيسة مساء الأحد. سيصحب هريدي بسيارته، وسيأتيان معًا إلى «قصر العدل» للشهادة على عقد قراننا. أعطيت كلًّا منهما خمسين دينارًا كي أضمن التزامهما بالموعد.

البارحة اتفقت معي:

«سأمرّ عليكِ في التاسعة».

هاجس مخاتل يلوح لي فيُخيفني: ماذا لو لم تأتِ؟ هل يمكن أن تخلف وعدك؟

ورقة زواجنا قبل أن تُكتَب دفعت أسرتي للتبرؤ مني؛ أمي وأخواتي وعمي وباقي العائلة. ومؤكد أنها ستزعج أهلك وتلاحقهم ليرددوا في مجالسهم: «ترك زوجته وأطفاله، وركض وراء عشيقته الشيعية!».

عائلتي وعائلتك سينبذوننا.. أخيرًا سننام بالحلال والنبذِ، وللنبذ في المجتمعات المتزمتة متعة تفوق متعة الحلال!

أتحرق لرؤية نظرة عينيك لحظة أمسك بورقة زواجنا بيدي. مئات المرات تخيلت هذه اللحظة.. نظرة عينيك هي ما علّقت قلبي بك، وفضحت رغبتَكَ الذكورية بي.. أذكر لقاءنا الأول قبل أربع سنوات في مكتبك في الوزارة. فبعد أكثر من سنة لإنجازي معاملاتك في سوق الأوراق المالية، عبر التلفون والفاكس والإيميل، بصفتك شخصًا مهمًّا جدًّا (VIP)، وبصفتي مديرة الحسابات الشخصية في البنك، أثرت فضولي فقررت رؤيتك. كنتُ معجبة بأدبك واقتصادك في الكلام، ومتضايقة من لعبك لدور الرجل الكريم الذي يرسل لي هدية ثمينة مع كل صفقة رابحة أنجزها له. كنتُ أتخوف من أن ألاقيك وتكون صورتك في الواقع بعيدة عن صورك في الجرائد والمجلات، وبعيدة عن الطول الفارع الذي أعشق. فأنا لا أتصور زواجي برجل أقصر مني، ولا أحب رجلًا ناعمًا في صوته وحركاته، ولا الرجل الذي يجعل من عضلاته المفتولة دليلًا على رجولته، ولا أطيق رجلًا بكعب قدمٍ أكثر خشونة من مبرد الخشب، أو برائحة نتنة.

اختلقت ضرورة كاذبة لتوقيعك على استمارة جديدة لحسابك البنكي، وحين طلبتَ مني إرسالها إليك مع المندوب، أجبتك بأنها استمارة خاصة، ويجب أن تأتي شخصيًّا إلى البنك للتوقيع عليها، وأدسّ جملتي اقترحت عليك:

«أو أزورك أنا في مكتبك؟».

«أهلًا وسهلًا».

أسرعت ترحب بي وكأنك تنتظر الزيارة. انخطفت وزاغت نظرة عينيك وأنت تراني أدخل مكتبك.. مؤكد أنك لم تكن تتوقعني كما أنا عليه. لكني لحظة أمسكت بكفك للسلام شعرتُ وكأن روحي أصبحت في راحة يدك! أحببت نظرة عينيك التي ترسل ودًّا إنسانيًّا آسرًا، وأحببت كفك بخشونة الرجولة فيها ونعومتها، وأصابعك الطويلة وأظافرك المقلمة.

في ذلك اللقاء وبعد أن أنهيت حديثي حول وضعك المالي، نهضت لأقدم لكَ كيسًا وضعته على مكتبك:

«ما هذا؟».

سألت وقد علت الدهشةُ وجهك، وبجملة رددتها مع نفسي، قلت لك:

«هداياك».

وأزيد من مفاجأتك:

«أنا أغنى منك».

خلا وجهك من أي تعبير، وأباغتك نهضت أشير إليك:

«مع السلامة».

«لحظة، لحظة».

هرعت تخرج من خلف مكتبك مسرعًا، وقد تخلى الهدوء عنك:

«إلى أين؟».

سألت وكنتَ تهمّ بمدّ يدك لتمسك بذراعي، لكنك استدركت فقلت فيما يشبه توسلًا:

«اجلسي قليلًا».

«عُد أنتَ فاجلسْ مكانك».

خاطبتكَ بلهجة آمرة، ناظرة في عينيك، وأضفت:

«كذبتُ عليك، ليس هناك أي معاملة بنكية أو توقيع».

وأزيد من حيرتك تركتُك تائهًا في دائرة المفاجأة، وخرجت منتشية من مكتبك، تكاد خطوتي أن تطير بي. مرددة أحدّث قلبي معجبة بك: «وسيم!».

من أين جاءت أسئلة الخوف في هذا الصباح لتتكوم هُنا بقربي؟ ويصعد بي السؤال: هل نحن الذين نمشي تجاه أقدارنا، أم إنها تنادي علينا، فنلبّي دون أن نعلم ماذا تخبئ لنا؟

مثلما يحق لأي رجل أن يتزوج بامرأة أحبها ووافقت هي على الارتباط به، سأتزوجك لأني أعجبتُ بك وأحببتك.. في الفترة

الأخيرة صرت أعيش وهاجس الحمل يظلل لحظتي. صار يتضخم مع كل يوم، وكأني فجأة تنبهت إلى أنني تجاوزت الثلاثين، وأن أخواتي وصديقاتي أصبح لهن أبناء بطولهن. تشوّقت لأن يتحرك جنين في رحمي، وأن تنتفخ بطني كأي امرأة حامل، تظهر علامات التشقق على جلدها. أمشي بنعال دون كعب، وقد تقوس عمودي الفقري دافعة تكوّر بطني أمامي، وتلوح على وجهي تلك التكشيرة التي تطبع وجوه النساء الحمّل.. لأول مرة في حياتي، صارت خطوتي تأخذني لزيارة محلات ملابس الأطفال. أقف عند ملابس الحوامل، وأتصور نفسي أدفع عربة طفلي.. حينها تفهّمت شكوى مني، صديقتي الأحب في البنك، التي مضى على زواجها أكثر من خمس سنوات ولم تستطع الحمل. كانت عقب فشل كل عملية طفل أنابيب تجريها، تبقى بعزلتها مكتئبة لأيام، تبلل جملها بدمعها:

«حين تُحرم المرأة من الحمل، تُصاب في أثمن وأجمل ما في حياتها!».

كنتُ أنظر إليها بحيرتها وحرِّ ألمها، تبثّني:

«المرأة ومع كل دورة شهرية، ولحظة يلطخها الدم، يلطخ مزاجها شيء من الضيق، ليس بسبب الآلام المزعجة المصاحبة للدورة، ولكن بسبب كدّر الروح؛ روحها كأنثى وهي تكوّر الفوطة الصحية، وترميها خلسة في سلة القمامة».

وتنعطف نبرة صوتها قائلة:

«الرجال لا يرون من النساء إلا أجسادهن، ولو أنهم عرفوا ما خلف كل عضو من أعضاء المرأة لتغيّرت نظرتهم إليها، وربما نفروا منها!».

في كل مرة كانت تجلس معي في نهاية الدوام، وبعد أن تتخفف من ثقل همِّها، تختم حديثها معي:

«أنا آسفة».

تقول جملتها وكأنها تنتبه إلى أنني غير متزوجة. يعلو خجل مفاجئ وجهها، تنهض وصوتها يردد:

«آسفة، حبيبتي كوثر أزعجتك بشكواي».

بعد لقائي الأول بك، وما إن خرجت من مكتبك في الوزارة حتى تعمدت إغلاق تلفوني النقال. كنتُ متأكدة أنك ستتصل، ورحت أتحدى نفسي: كم مرة سيفعل؟ ثلاثًا، خمسًا.. يومها ولأن تلفوني النقال في حقيبة يدي، ولأني لحظة عدت إلى مكتبي في البنك انشغلت بأعمال كثيرة، لم أنتبه إلا حين طلبتني أختي جميلة من تلفون مكتبي متسائلة:

«تلفونك النقال مغلق!».

لحظتها تذكرت التلفون وتذكرتك. وحين فتحته فوجئت بسبعة اتصالات منك! ابتسمت، ولم أكد أنتهي من قراءة الرقم حتى عاودت أنتَ الاتصال:

«ألو».

وكما لو أنك لم تكن تريد من الحياة إلا سماع صوتي ليردّ إليك جزءا من روحك الغائبة. بقيت ساكتًا وخنستُ أنا أنتظرك تقول أي كلمة، ولأنك لم تنطق بادَرتُك:

«تفضل أستاذ مشاري».

«لا تقولي أستاذًا».

ربما تلك كانت العبارة الأولى في قصة حبنا، ففي جرس نبرتها ما كشف لي عن ضعفك، وأشعرني أنك طفل صغير، وأوحى لي بأن أشياء كثيرة يمكن أن تحصل بيننا. ولا أدري كيف أسرعتُ أسألك:

«تتغدين معي؟».

أربكك طلبي المفاجئ، وتلكأت في الإجابة لثوانٍ قليلة كانت كافية كي أسحب دعوتي:

«آسفة أمي تنتظرني».

قلت منهية المكالمة دونما الرجوع إليك. فلقد تضايقت من نفسي لأني تسرّعت بدعوتك، وتضايقت منك لأنك رفضت اقتناص دعوتي، وضيقان كانا كفيلين بأن أغلق تلفوني وأخرج من مكتبي قبل انتهاء الدوام.

أنتَ منْ أصرَّ على ملاحقتي. أذكر رسالة التلفون الصغيرة تلك:

«أحلى صباح للبنت العصبية!».

وجدتها على تلفوني لحظة فتحته في صباح اليوم التالي. استغربت الخفة التي جعلتك تكتب مثل تلك الرسالة! لكن حلاوة مخاتلة دارت في روحي. ووجدتني منتعشة وأنا أستحم وأنتقي ثيابي وأتبخر قبل خروجي إلى عملي. وما إن ركبت سيارتي، وكما لو أنك كنت تراقبني، جاءني حسّك بنبرة لم أعتدْها طوال تعاملي البنكي معك:

«صباح الورد».

بقيت صامتة، فأضفت تسألني:

«ضايقتك؟».

فاجأني اتصالك وفاجأتني كلمتك. تحيرت لا أعرف بما أرد، فعُدت تسألني:

«كيف أراضيك؟».

«لست متضايقة».

أخبرتك أنني مخطئة، فدعوتي للغداء لم تكن في محلها، وأنك محق بترددك، وأني أقدّر موقفك:

«أنا أنتظر دعوة جديدة».

لم تعجبني جملتك، شعرت أنني أمام رجل مختلف عن ذاك الذي ظل يردّ بتحفظٍ طوال سنة على اتصالاتي. فأسرعت أقترح:

«أفضل أن نبقى في علاقة العمل».

خنست أنتَ خلف التلفون، وأنتهز الفرصة قلت لك:

«عفوًا، لديَّ مكالمة ثانية».

أنهيت اتصالك؛ كي أهرب من ارتباكي. انتبهت إلى أنني ارتكبتُ خطأً كبيرًا بزيارتك. ولمت نفسي على دعوتي السخيفة لك لتناول الغداء، وقلت بصوت عالٍ: الرجل متزوج وعنده أطفال! لكن باقة ورد «الكازابلانكا» الوردية التي بعثت بها، مصحوبة ببطاقة بيضاء مكتوب عليها «إلى الغالية» ، احتلت مكتبي برائحتها القوية، مسّت روحي، تركتني مبعثرة طوال يومي.

مشاري، لا أعرف سببًا محددًا جعلني أنجذبُ إليك، وكأنه لا سبيل للتأمل في الحب والمحبوب معًا. فحين يهيم أحدنا بالبحث عن الحب فهو يعمى عن حال المحبوب. ولحظة تُتيّم بالمحبوب، فأنت دون أن تدري تنساق إلى شواطئ وغابات من الجنون والألم!

أنتَ من ركض خلفي. صحيح أنني زرتك في مكتبك بداعي الفضول، لكنك رحت تلاحقني:

«بودي نكون أقرب».

قلت لي بنبرة ناعمة حين اتصلت لأشكرك على باقة الورد.. استغربت كثيرًا جملتك. بقيت ساكتة، فعدت لمغازلتي بنعومة صوتك:

«آسف إذا ضايقتك».

بين يوم وليلة انقلب الرجل! حدّثت نفسي وكأني لا أصدق ما يحدث، ويفلت مني السؤال:

«ماذا حصل؟».

وبالنبرة الناعمة ذاتها قلت لي:

«أنا مسحور!».

انفجرت أنا بضحكتي دون قصد، فزدت أنتَ تعبّر عن إعجابك:

«أحلى ضحكة».

مع مرور الأيام وإصرارك على ملاحقتي؛ ارتخى حبل تماسكي. ملأت صورتك رأسي.. أذكر يوم خرجت من البنك، فوجدتك تنتظرني في الموقف. اصطنعت مشيك تجاه ماكينة سحب النقود لتقف معي:

«جئت لأراك».

قلت لي غارسًا نظرة عينيك في قلبي.. فاجأني ظهورك غير المتوقع:

«لماذا أنتِ قاسية».

كنت تكلمني وكأن شيئًا يجمع بيننا، وكان أسلوبك يبعثر الكلام عن لساني، ويجعلني إنسانة أخرى.

يومها طلبت مني أن نلتقي؛ ولكي لا أطيل من وقوفي معك، وعدت قائلة:

«سأرى».

بسببك التف حبل العلاقة الماكر حول رقبتي ورقبتك. أربع سنوات عمر علاقتنا. لكني وخلال الأشهر الماضية، حين اتخذنا

قـرار زواجنا، بدأت ألاحظ انطفاء شـيء من تلـك النظرة النزقة في عينيـك! وتبخر شـيءٌ من الابتسـام الذي كان يجمّـل وجهك.. في إحدى المرات بُحتَ لي بألم:

«أشعر أن حياتي تهتز وتتدهور!».

وتلوّت الشكوى في حسّك:

«ما عدتُ قادرًا على التركيز في عملي!».

جننـتُ أنا بك شـريك حيـاة، وتعلّقت أنتَ بي أنثـى مغرية.. في الفتـرة الأخيـرة، صـرتُ أتعذب وأنـا أراك تتمزق بعجـزك عن ترك زوجتـك وعيالـك، وبين حرّ رغبتك فـي البقاء معـي.. قررت عدم اسـتقبالك في شـقتي؛ علَّ ذلك يبعدك عني ويُنهـي علاقتنا، طلبت منك:

«أرجوك لا تأتِ لزيارتي».

وحذرتك:

«لن أسمح لك بالدخول».

لكنك جئت.. في المرة الأولى بقيت واقفًا بالباب لأكثر من ربع السـاعة. لتنصرف بعد أن دسسـت ورقة صغيـرة تحت ضلفة الباب كتبـت عليها: «كوثـر حبيبة مشـاري». وجئت في المـرة الثانية ولم تتـرك ورقـة، وفي المرة الثالثـة حضرت بعد الثانيـة صباحًا، ولأنني كنـتُ نائمة تفاجأت برنـة جرس الباب، فأسـرعت أدخلك. وقفت منكسرًا تنظر إليَّ وأنا أقف بقميص النوم وكأنك تراني للمرة الأولى:

«أنا أحبكِ».

أرسلت جملتك الموجعة، ورميت بجسدك على «الصوفا» وبقيت سارحًا لم تنطق بحرف واحد. ولا أدري كيف غفوت أنا ممددة على الصوفا المقابلة، وحين أيقظتني الخادمة في السابعة صباحًا كنتُ وحدي، فتصورت أنني كنت أحلم وأنك لم تحضر. لكنك اتصلت تعاتبني:

«أنتِ قاسية».

قلت لي:

«حضرت البارحة لأراكِ.. لا أتصور حياتي بدونك».

«وزوجتك؟».

أربكك السؤال وأخرسك، وأبكى قلبي.

كلانا في ورطة! أنت في ورطة رجل ركض وراء رغبته بامرأة فغافله قلبه وتعلّق بها، وتنتظره ضريبة وضربة قاسيتان في حال طلاقه من زوجته وتشتت أطفاله. وأنا في ورطة حبك وخلافي مع أهلي ووحدتي، وتهديدات عمي باقر، وإحساسي أنني أسطو عليك لأنتزعك من حضن زوجتك وعيالك.. أريد الارتباط بك لأني غير مستعدة لأن أكون امرأة متعة رخيصة، تأتي إليها لتفرّغ فورة رجولتك، وتغادرها مرمية في قاع حفرة مظلمة.

لا أدري لماذا استيقظت المخاوف في قلبي صباح يوم زواجي!

تعبت كثيرًا وما عدت أحتمل المزيد!

في السعودية اخترعوا زواج «المسيار»، وأنا لا أقبل على نفسي أن أكون امرأة مستكينة ألوذ في غرفة في بيت أهلي أنتظر أن يتكرم رجل عليَّ، يأتي مُسيِّرًا لزيارتي مستقويًا بفحولته ونافشًا ريشه كالديك. يسعد قلبي بحضوره الذكوري، يختلي بي ليفرغ شهوته البائسة، ويتركني بعدها على أمل زيارة قادمة يتفضل بها عليَّ متى ما فارت شهوته.. البعض من الشيعة لديهم ما يُسمى بزواج «المتعة»، وأنا لا أرضى أن أكون متعةً مبذولة لرجل تافه، راق له شكلي فوافق أن يعقد عليَّ قرانًا بائسًا صوريًّا لمدة شهر أو شهرين كي أرفه عنه وأسعد نزوته.. لا أرضى إلا بعلاقة كاملة مع رجل إنسان قبل أن يكون ذكرًا. تعلمتُ من أبي أن العلاقة بين الرجل والمرأة تعني مشاركة الحياة بحلوها ومرّها، وليس نومة الفراش التعسة.

يا مشاري، أنا حلمت بك فترة، واقتربت منك فترة، وفكرت طويلًا، وأخيرًا قررت.. ولأن قرار الزواج لا يصحّ بفرد واحد، هو في كل بلاد الدنيا، وحسب جميع الأديان السماوية والمِلل البشرية اتفاق بين طرفين، يُعمّد في كنيسة أو يُوثّق في محكمة أو أمام قاضٍ شرعيّ، المهم شخصان يريدان الارتباط ورجل دين وشهود، ولأنك أعجز وأجبن من أن تتفق معي على الزواج، انتزعت أنا موافقتك.

ربما لهذا أنا خائفة!

الكويت واحدة من أصغر دول الدنيا، أنا وأنت كويتيان مسلمان، إلا أن الحواجز وقفت في وجه حبنا وزواجنا، أول هذه الحواجز، إصرارك على علاقتك ووصلك بي، مع احتفاظك بزوجتك

وأطفالـك ووضعـك الاجتماعـي. أنـتَ لا تريـد أن تخـرب هدوء عائلتـك وتخـدش صورتـك أمـام المجتمع باسـتقرارك الأسـري، وتريدني أن أكون العشيقة، المرأة الاحتياط، وأنا أرفض هذا. أرفض أن أكـون أقل من امـرأة كاملة لرجل كامل، أعيش لحظتي معك وأنا أشـعر أنك رجلي وحدي، وأنني حبيبة قلبك ومعشوقتك. وإذا كان لديك أنت استعداد، كأي رجل، بأن تكون معي نصف رجل، نصف متيم، نصف محبّ، نصف زوج، فأنا أرفض النصف، ولا أرضى إلا بالواحد. ثم تحسسك من أني شيعية وأنت سني، ولو أنك لا تمتلك جرأة التصريح به، إلا أنني مرارًا شعرت بأن الكلمات تلتصق بسقف فمك، تخشـى منها فضـح تخوفـك وحرجك المكشـوف. وأخيرًا خوفك من المجهول الذي ينتظرك حين يُقال:

«تزوج عشيقته بالسر».

بعد موت والدي أشـعر أنه ما عاد لي من أحدٍ في الكويت.. في الآونـة الأخيرة، وبعد أن همتُ بعنائي وتعبي ويأسـي منك، فكّرت بالهجـرة إلـى أي بلد. قررت الابتعـاد عنك كي أريـح قلبي. لكنك تمسكتَ بي:

«أموت لو سافرتِ».

في كل مرة أردّ عليك:

«كذّاب».

تبتسم أنت متصورًا أنني أمزح معك، وأؤكد لك:

«أنا جادة».

ما صادفت في حياتي رجلًا مات بعد أن هجرته حبيبته. هذا كلام لا مكان له على أرض الواقع، وليس له وجود إلا على صفحات الروايات الرومانسية أو أفلام هوليود.

آه لو تعلم يا مشاري: لحظات المتعة التي ذقتها بصحبتك، لا تكاد تُذكر أمام جبل المواجع والحزن والألم الذي عشته معك! ليتني استمعت لعقلي، فأنا بعد لقائنا الأول في مكتبك، وبعد رفضك لدعوة الغداء الأولى التي قدمتها لك، قلت هامسة لنفسي: هذا ليس رجلك يا كوثر. هذا رجل جبان خطواته أقصر بكثير من أن تجاري خطواتك، ووضعت ألف عذر وعذر. قلت: رجل متزوج وله ثلاثة أطفال، وقلت: لن أسمح لنفسي بتخريب شمل أسرة. وقلت: لستُ أنا منْ تسرق رجلًا من امرأة أو تشاركها زوجها. وزجرت نفسي: كيف تبنين سعادتك على حطام امرأة وأطفالها؟ وقلت، وقلت، وقلت.. لكننا، في الحب نقول كل شيء لأنفسنا، وتستمع وتقتنع وتاليًا تفعل ما يشير به القلب!

ربما بعد ساعات سأستلم بيدي ورقة عقد قراننا.. رتّبنا معًا رحلة لمدة أسبوع كشهر عسل.

فجأة، أشعر أن كل شيء اختلط في فكري! نمتُ البارحة وشيء من لهفةٍ وفرح في قلبي، واستيقظت وأسئلة كثيرة متكومةٌ بقربي.. لا أدري لماذا أنا مشتتة.

ما زلت ممددة على فراشي في غرفتي.. احتجت لفترة، بعد انتقالي إليها؛ كي أعتاد نومي على فرشة سريري الجديد. جئت بمخدتي التي أحب معي من بيت أبي.. فجر اليوم انصبّ صوت مؤذن المسجد القريب في أذني، وهو يرفع أذان الفجر، وكأنه يتعمد إيقاظي. نظرتُ إلى الساعة التي تراقبني فكانت تشير إلى الخامسة؛ لذا فضّلت البقاء في فراشي. حين يكون لدينا موعد مهم، نتغاضى عن خسارة ساعات عمرنا، نتمنى لو يأتي الموعد في التو واللحظة.

عمري وحياتي منذ صغري كانا مختلفين عن حياة أخواتي وبنات عمي وصديقاتي.

نحن خمس بنات؛ جميلة الكبرى، سمّاها والدي تيمنًا باسم المناضلة الجزائرية «جميلة بوحيرد»، وبعدها فاطمة وزينب التوأم، ثم ثريا، وأخيرًا جئت أنا. يوم ولدتني أمي التي كانت منذ حملها الأول تحلم وتتوق لمولود ذكر، خاطبها أبي بقوله:

«لا أريد ولدًا».

نظر إليها، وقال بنبرة مزاج مرّ:

«إذا كنتِ مصرة على ولد، فابحثي عن رجل آخر».

يلبس الجدُّ وجه أمي وهي تقصّ عليَّ حكاية ولادتي، تقول إن أبي اتخذ قراره:

«كوثر ستكون بنتنا وولدنا».

تغيب لبرهة تستذكر حوادث حياتي، فتبعث وكأنها تكلّم نفسها بشيء من أسى:

«صدق أبوك».

الساعة تشـير إلى الخامسة والنصف. سأزيح ستارة النافذة حال أنهض من السرير، وأحيي البحر كعادتي كل يوم، فأنا يحلو الشعور لي بأنه يسكن معي شقتي، أردد عليه بصوت مسموع:

«صباح الخير».

شقتي هادئة، ما زالت خادمتي نائمة، وأنا لم أزل ممددة هُنا فوق فراشي أنظر إلى السقف الأبيض وكأنني أقرأ حوادث عمري.. أمي كانت تقول لي:

«مسكين الرجل الذي سيتزوجك».

أنظر إليها أسألها:

«لماذا؟».

تسكت لبرهة قبل أن تردّ بنبرة لائمة:

«دلّوعة وصعبة».

لكن أبي لا يلبث أن يطلق جملته في الهواء:

«مسكين الذي سيحبّها».

مـرارًا تسـاءلت: ما الـذي يدفع أبي لتكـرار جملتـه؟ ربما لأني تعلقت به وعشـقت عالمـه؛ لذا فهو يدرك كيف سـأتعلق بأي رجلٍ حين أعشـق.. أبي كان صديقي وحبيبي، وكان يدللني عن كل بناته، وكم أثار ذلك غيرة أخواتي.

عام ١٩٨٧، كنتُ في العاشرة من عمري يوم دفعتني ثريا أختي التي تكبرني بسنتين، في البحر دون سبب. كنا نقف على اللسان الخرساني الممتد داخل البحر أمام شاليه بابا. وكان الهواء عاصفًا والموج عاليًا، وكنت أقف لاهية أنظر إلى هيجان البحر وتدافع الأمواج، وحتى اللحظة أشعر بخفق قلبي حين أسترجع لحظة ارتطام جسدي بالماء، لا أدري كيف انطلقت صرختي على وجه الماء، لكن شيئًا ما سحبني إلى الأعماق، ولم أستعد وعيي إلا وأبي يضغط صدري ليطفح الماء المالح خارجًا من فمي وأنفي. في تلك اللحظة شعرتُ بالفزع من الموت، وربما دون أن أعي أدركت كم هي قصيرة الحياة، ولا تحتاج لأكثر من دفعة صغيرة كي تنتهي. وربما دون وعي أيضًا قررت أن أعيش الحياة وكأنني سأموت في اللحظة القادمة.

في عصر ذلك اليوم، ونحن في السيارة عائدان إلى البيت، طلبت من أبي أن يعلمني السباحة، وطلبت من أمي ألا أنام مع أختي ثريا في غرفة واحدة، ولأنها لم تأخذ طلبي على محمل الجد، وردت عليَّ مُهوِّنة حين جاء موعد النوم:

«أبوك عاقبها ولن تعيدها».

بقيت جالسة في الصالة، أعدتُ عليها وأنا أضغط مخارج الحروف في كل كلمة:

«لن أنام معها».

ولأن صوتي ونظرة عينيَّ نطقا بصدق نيتي، ظهر شيء من الضيق والحزن على وجه أمي، وانكمشت ثريا في جلستها. صرخت أمي تنادي على أبي الذي أخذني إلى فراشه، قائلًا لأمي:

«غدًا تنام كل بنت في غرفة».

حين ارتفع جدار الطابوق ليفصل بين غرفتي وغرفة أختي، كان قد سبقه جدار الخوف منها في قلبي، وجدار الحقد عليَّ في قلبها.

تلك الحادثة كانت أول دليل على صلابة شخصيتي.

تدليل أبي وتفضيله لي على بقية أخواتي، ضعضعا علاقتي بأمي، وجرَّ عليَّ غيرة أخواتي وكره ثريا وحقدها، ليس في طفولتي وباقي مراحل حياتي، بل وجعل أمي تلتصق بثريا وتفضّلها علينا أجمع. بينما راحت أخواتي ترددن عليَّ بسبب ومن دونه:

«دلوعة بابا!».

تعوّد أبي صباح اليوم الأول من عيد الفطر والعيد الأضحى، وبعد أن يرجع من مجلس «ديوانية» الرجال في بيت جدي، تكون أمي قد حممتنا أنا وأخواتي، وألبستنا ثياب العيد الجديدة، ورتبت شعورنا وبخرتنا، وما إن يدخل أبي حتى ينثر جملته الحبيبة:

«عيدكم مبارك!».

وبالرغم من تنبيهات أمي بأن ألازم مكاني، انفلت راكضة نحوه أرمي بنفسي عليه، وأقبّله قائلة:

«عيدك مبارك».

يحملنـي هـو ضاحـكًا، يقبّلني ويقـول بصوت عـالٍ وكأنه يريد للجميع أن يسمعه:

«وعيدك يا حبيبة بابا».

يجلـس علـى كرسـيه المعهود، ويضـرب على جيب دشداشـته الجانبي الأيمن مرددًا بنبرة أحبها:

«عيادي، عيادي».

يبدأ بإعطاء أمي عيديتها، ثم أخواتي يعطيهن مبلغ العيدية نفسه: جميلة وفاطمة وزينب وثريا، وحين يصل دوري، يفرد أمامي أوراق النقود الجديدة قائلًا:

«عيدية حبيبتي على كيفها».

تعاتبه أمي:

«كلهن بناتك، لا يصح أن تفرق بينهن».

ودون تورية يجيبها:

«أحب كوثر».

تصرخ أمي عليَّ بضيق واضح:

«خُذي ما أخذته أخواتك».

حـب أبـي وتدليله أبعدانـي عن أخواتـي، وجرَّانـي وراءه أول ما جرَّانـي إلـى المكتبة والكتب، فعادة أبي في كل يوم، بعد أن يسـتيقظ

مـن قيلولته أن يحمل كأس الشـاي، ويقصد مكتبتـه. وما كاد عمري يبلـغ السادسـة، يوم صـرت أشـاركه وحدي جلسـاته اليوميـة. تلك الجلسات كانت تمسّ قلبي بسحرٍ عالمها. يقصّ هو عليَّ أخبار يومه ولقاءاته وصداقاته، ويطلب مني أن أخبره عن يومي في المدرسة. في تلك الغرفة الحبيبة في بيتنا في منطقة «الدَسـمة»، راح أبي يحلّ معي واجباتي المدرسـية ويقرأ عليَّ الروايات والكتب، حتى دون أن أفهم الكثيـر مما كان يقـرأ لي. وفي التاسـعة بدأت أقـرأ وحدي، وصرت أنافسه في عدد الصفحات التي ننتهي منها في جلستنا كل يوم.

كنـتُ أقصـد مكتبة أبـي لأؤكد لنفسـي مكانتـي الخاصـة لديه؛ ولأظهر لأمي وأخواتي التصاقي به وقربه مني؛ وكي أستمتع بسماع أخباره، وأخبّره بحوادث يومي. وكنت أقرأ وأقرأ بداعي التقرب منه وإسعاده، وأن أثبت تميّزي عن أخواتي، فهناك كنتُ ألتقي بأصدقاء أبي من الكتّاب والمثقفين والفنانين وأستمع لنقاشاتهم وأحاديثهم. وأبـدًا لـم يـدر بخلـدي أن تلك الجلسـات والقـراءات والأحاديث سـتلعب بحياتي وتغيّرها، وتسـم شـخصيتي بطابع مختلف جعلني أشعر بالغربة والألم أينما ذهبت!

- ٤ -

هُنـا فـي غرفة مكتبـي، يلكزني ألم «الديسـك» في ظهـري، ينبّه خدر سـاقي اليسـرى، يزجرني إذا أطلت الجلوس أمـام الكمبيوتر، فأتوقـف لبرهة عن الكتابـة، أنهض بألمي كي أخطو بضع خطوات. أتفقد الهدوء والوحدة، فيسرع يعودني اللحن الشجي، ويمرجحني صوت محمود الكويتي بكلمات الشمّري:

شـفت الجدايل واحسـبك رومية   ثـاري الزلوف مقرّضـة يا أخواني

أغيـب بخيالاتـي مع امـرأة جريئـة، «بزلوف» شـعرها القصيرة، حتـى إن الشـمّري ظـن لوهلة أنهـا أجنبيـة.. تأتي إليَّ أيـام صغري وشـبابي، ويحضر بي لحـن الدفوف والتصفيق في حفلات النسـاء برقصهن لفن السـامري. لابسـات أثواب الرقص الشفيفة، الموشّاة بالـزرِّ الذهبي اللامع. يتهادين بخفر حركة أجسـادهن، يتمايلن وقد توحدن بإيقاع اللحن، وترنَّمَ اللحنُ لخطوهن.

يرقصن بتوءدة .. تشـدّني تلك اللحظة، حين تزيح المرأة الثوب عن رأسـها، كاشفة وجهها، وتنحني قليلًا برقبتها ل «تلفح» بشعرها

يمنـة ويسـرة، وكأنها تتخلص رامية ما يثقل رأسـها مـن هموم، تنثر شيئًا من بخور شعرها المعطر بدهن العود، على من حولها، قبل أن تعاود تغطية رأسـها وحجب سـرٍّ وجهها؛ لتترك لخطوها المتهادي هزَّ غصن جذعها على وقع الدفوف وشيء من التصفيق المتناغم.

كيف يمكن لحركة الجسد أن تكون بوابة العبور لارتواء الروح؟!

وحدي أُمضي ساعات يومي، هُنا ..

انبعثـت الجملة في قلبي، فشـعرتُ وكأن جيشًـا من نمل الضيق بدأ يدبُّ على روحي، زَحَفَ ليكدر مزاجي. انتبهت إلى أن الوحدة تبحلق بي، وأن الجدران تشتكي ملل صمتها.

اقتربت أقف خلف نافذة مكتبي المطلة على منطقة «المباركية».. حركة السيارات في شارع «علي السالم» منسابة، وعلى البعد لاحت لي قبة «مسجد الدولة» وإلى جانبها مبنى «البنك المركزي» الجديد الشاهق في مراحل بنائه الأخيرة.

غرفـة مكتبـي صغيرة بطقـم «صوفا» بني داكـن، وحوائط بيضاء مسـالمة، ومكتب بني اللون وكمبيوتر، ومجموعة كتب ومجلات، وصـراخ أفـكاري وضجيجها.. أنا سـجين الهُنا. يبقـى باب غرفتي مغلقًـا طوال اليوم، فـلا علاقة لي بما يجري من أعمال واجتماعات ولقاءات في إدارة الهندسة، وبالكاد ألتقي أحيانًا زملائي في الإدارة بينما أعبر الممر المؤدي إلى غرفتي، أتبادل معهم التحية.

منذ بداية عام ٢٠٠٩ وأنا مزروع بصمتٍ في هُناي. البعض يردد في غرف المجلس الوطني الغارقة في سوالفها:

«طالب الرفاعي مجمّد!».

ويعلل بعض آخر غيابي عن فعاليات المجلس وأنشطته. هامسًا بنبرة حذرة:

«أبعدوه عن أي منصب أو مهمة».

وهناك من يتهمني بالتعالي والتكبر وأنني اخترت عزلتي بنفسي. لكن، أصدقائي الكتّاب والصحافيين والإعلاميين من داخل الكويت وخارجها يحسدوني، حين يأتون لزيارتي فيكتشفون أنني أحيا هُنا هادئًا، متفرغًا للقراءة والكتابة، وأنني أستلم راتبي مكمّلًا في نهاية كل شهر.

يوم بدأت السير على درب الكتابة المغري، في مجلات وصحف جامعة الكويت في منتصف السبعينيات، كنتُ طالبًا في كلية الهندسة والبترول، وقتها منّيت نفسي بأحلام كثيرة، أومأت تشير لي بسحرٍ مغرٍ. وبعد ما يزيد على العقود الثلاثة، لم أنل منها إلا الخلاص.. الكتابة الآن هي خلاص روحي، وعليها وبها أعيش متوازنًا على عارضة يومي الشاهقة.

للتو أنهيت كتابة فصل جديد من الرواية التي أشتغل عليها منذ ما يزيد على السنة، بعد أن أعدت كتابته، كعادتي، أكثر من مرة. سمعتُ نقرًا خفيفًا على باب مكتبي، التفتُّ من وقفتي خلف النافذة قائلًا:

«تفضل».

انفتحت فرجة صغيرة في الباب، وأطلّ وجه كوثر:

«صباح الخير».

حيّتني وضلفة الباب تُخفي جل جسدها.

«صباح النور».

أجبتها بنبرة مرحِّبة، وجهدتُ لرسم ابتسامة لقاءٍ على وجهي. خطت هي داخلة بطولها الفارع وخطوتها الواثقة. مدّت كفها تصافحني وقبّلتني على خديَّ قائلة:

«وحدك».

«دائمًا».

أجبتها وارتباك حضورها المفاجئ يحاصرني. واللحن:

قلتْ اوقفي لي وإرفعي البوشيّة

جلست واضعة ساقًا فوق أخرى، بفستانٍ كحلي حرير تزينه خطوط صفراء رفيعة، وقد لفتتني لمعة الساعة «الشوبارد» التي تزين معصمها، وحقيبة «هيرمس» الباهظة الثمن. ولا أدري لماذا شعرتُ أني مشتت لا أقوى على لملمة أفكاري، وأن صرخات متداخلة انطلقت في رأسي.

«جئت حسب الموعد».

نظرة عينيها أو ربما نضارة بشرة وجهها أو بعثرة شعرها الأشقر بجنونه أو رسم شفتيها الصغيرتين أحضر إليَّ هيئة ممثلة «هوليود» الجنوب إفريقية «تشاليز ثيرون».

«لن آخذ من وقتك الكثير».

بقيت مختبئًا خلف صمتي أنظر إليها كي تُفصح:

«سيزورك مشاري ليطلبني منك».

خمشت أظافر جملتها النافرة وجهي. أضافت هي:

«أنتَ صديق بابا الأقرب، ولا أحد لي غيرك».

بلعت ريقي الناشف. أنا أكتب حكايتها، وأبدًا لم يدر في خلدي أن تداهمني بطلبها. ما فهمت المغزى خلف خطوتها.

«مشاري موافق».

نبّهني صوتها. ترددتُ أقول أي شيء، فلم أكن لأتوقع الموقف. كيف أخبرها بأني أكتب حكايتها وأسرتها، وقصة علاقتها مع مشاري بأسمائهم الحقيقية، وأني أخفيت فقط اسم والدها صديقي؛ احترامًا لأسرار علاقتنا ولحرمة موته؟ فما أكثر ما رددتُ عليه بين الجد والهزل:

«يومًا ما سأكتب رواية عنك».

كان يبتسم كعادته، ويعلّق بالجملة ذاتها:

«لا تتأخر فقد يداهم الموت أحدنا في أي لحظة».

هل كان يهجس بموته المفاجئ ويبعث لي برسالة لم أحسن قراءتها؟

كيف أنقل لها أنها بطلة روايتي، وأنني أضع على لسانها تصوراتي لقصة حياتها وعلاقتها مع مشاري؟

«سنعقد قراننا بعد أسبوع».

نبست تستخرجني من حفرة أفكاري:

«وأهلك؟»

«لا علاقة بيننا».

بعثت جملتها بشيء من أسى، وأضافت:

«قاطعوني يوم انتقلت للسكن في شقتي».

نظرتُ إليها. فتاة تجهد لنيل حقها المشروع في الزواج، وعيش حياتها بهدوء وفق قناعاتها. دار ببالي: كم هو مكلف، وقد يكون مدمِّرًا، أن تتخطى فتاة حواجز وخطوطًا بائسة شيّدها المجتمع، واستمات في الدفاع عنها، وسحق كل من يجرؤ على مسّها أو التعدي عليها.

تملّيتُ جمالها المثير، وأسرع إلى قلبي السؤال: «من أين يأتي الإنسان بحظٍّ زاهٍ يصاحب خطو حياته؟».

«هل أنت موافق؟».

سألتني وقد نزَّ رجاءٌ موجعٌ في نظرتها وحسّها.

«نعم».

أفلتُّ مواسيًا. طفرت مني كلمتي وكأني أبحث عن طوق نجاة، وكما لو أن قلبها نال ما جاءت من أجله. فزّت واقفة:

«كنتُ متأكدة من أنك لن تخذلني».

تحـركـ شـيء مـن فـرحٍ حلو فـي نظـرة عينيهـا فأضـاء وجهها، أضافت:

«لن آخذ من وقتك أكثر، مؤكد أنك مشغول بالكتابة».

ظل وجهي خاليًا من أي تعبير:

«سأتصل بك».

نهضت واقفة، وأجاريها نهضتُ فرمت بنفسها عليَّ تحتضنني قائلة:

«الله لا يحرمني منك».

شيءٌ أشبه بالغصة أمسك بحسّي فمنعني من أي ردّ.

وبخفـة خطواتهـا انسـحبت خارجة وقـد تركت شـيئًا من روح أبيها ومـن عطرها ليبقيا معي. وأجرّ خطواتـي المُتعَبة عدت لأقابل نافذة مكتبي المشـرعة علـى الضياء، وقد نبتت أشـواكـ ضيق مدببة في رأسي.

كوثر تريد زجي في قصة حبها! حدّثتُ نفسـي وأضفت: أي زجٍّ يعدل كتابة رواية؟ ويرتفع اللحن كأهدأ ما يكون:

خليـني أروي ضامـر العطشـاني

- ٥ -

«زواجنا بيدي.»

نبسـتِ أنتِ تضيفيـن الكلمتيـن لشـطرِ عبارتـكِ الأول. نبّهتكِ الكلمات لما ينتظرك بعد ساعات.

تحوم حولك أسئلة الخوف التي استيقظت معك.. مضت عليكِ ستة أشـهر وأنتِ في شـقتكِ. من أيـن يأتي المكان بهذه السـطوة؟ كيف له أن يمدَّ يده السحرية العجيبة ليعيد تشكيل عجين أرواحنا؟! ستة أشهر، كأنها صنعت منك كوثر أخرى!

لا تذكرين بأي رواية، قرأتِ مرة، أن السجن يطبع روح السجين بشـيء سـري مؤلم، يلازمه كالعلقم، يثير المرارة في فم روحه حتى آخر يوم في حياته!

صرتِ تضيقين أحيانًا حتى بأنفاس الخادمة التي تشاركك الشقة. حين تخرج إلى الكنيسـة مسـاء الأحد، شعور غريب يتسرب إليك. تتركك لخلوتك الخالصة مع شـقتك.. تختلـف خطوتك ونظرتك

وتصيخين السـمع لهمـس الصمت، وأحيانًا تمشـين عاريـة، تاركة لجدران شقتك أن تختلس النظر لتعاريج جسدك!

تأتـي إليك كلمات صديق أبيك الدكتور مجدي. تذكرينها كأنك تسمعينها اللحظة:

«صرتُ أشعر بالغربة حين أرجع لمصر!».

كان مـن أصدقـاء أبيـك الذيـن عملـوا فـي الكويـت لأكثـر من خمس وعشرين سنة، وكان يشكو غربته حين يعود لتمضية الإجازة في بلده.

«ما عدت أعرف بعض أهلي ولا أصدقائي ولا محلتي!».

وكان يضيف وشيء من الاستغراب بصوته:

«بعد الأسبوع الأول، يضجّ أولادي بالشكوى، يطالبون بالعودة إلى الكويت!».

قلبـكِ أنتِ لـم يأنس بعد لشـقتكِ، لكنك تستشـعرين لذة تمسّ روحك.

أضواء السـاعة الحمراء تظهر السادسـة إلا ربعًا، مـا زلتِ ملتفّة بكسـل الصباح الألـذ، تتمددين على فراشـك فـي غرفتك.. خلال الفترة المقبلة سيأتي مشاري ليشاركك المكان.

لا تدرين كم منه سيكون لكِ، وكم سيبقى نصيب زوجته الأخرى إن لم يطلقها!

الخـوف والهواجـس طـردا النـوم، وأحضـرا ذكريـات قصتـك وحبيبـك.. تؤخريـن تحيتـك الصباحيـة لصديقـك البحـر، الـذي ينتظرك خلف النافذة في اتساع عالمه وتلألؤ مياهه.

-٦-

مشـاري، يومًـا ما سـأحكي لك قصصًا مـن حياتـي.. المهم أننا اليوم قبل الظهر سـنكون زوجين شـرعيين، ولقد حضّرت جسـدي لاسـتقبالك. فأنا أشـعر بخفةٍ حينما أكـون متزينـة، متعطرة ولامعة بكل ثنايا جسـدي. إحسـاس غريب وسـري أقرب للذة خفية يمسُّ نفسـيتي، يصاحـب خطـوي وابتسـامتي، ويبقـى يهمـس بأذنـي: «أنتِ الأجمل!».

عصـر أمس جـاءت إليَّ «سـوزي» فتـاة الصالـون الفلبينية التي تزورني لتعمل لي «المني كير» و «البدي كير». قلت لها:

«غدًا سأتزوج».

لا أدري لماذا تفاجأت وكأنها لـم تكن تتوقعني أتزوج، وأخرجها من دهشتها، قلت لها مبتسمة:

«تنظيف كامل».

مرة أسررتَ لي:

«يثيرني منظر المرأة وهي تقوم بتنظيف نفسها».

وببساطتي التي تفاجئك رددت عليك:

«أنتَ دومًا مُثار».

ثورة كبيرة فجّرتها عمتي ألطاف عام ١٩٧٧، سنة مجيئي إلى الدنيا. في تلك السنة حقق أبي حلمها بالزواج ممن تحب. تقدم لخطبتها شاب سني كان صديقها طوال فترة دراستها في جامعة الكويت. فرفض جدي قائلًا:

«لا أزوّج سنيًّا».

لكن أبي، الشاب القومي الليبرالي المتحرر في تفكيره وآرائه وسلوكه، الذي تخرج في «الجامعة الأمريكية في بيروت» قبل ذلك بسبع سنوات، وقف بوجهه بشدة:

«ترفض شابًّا كويتيًّا جامعيًّا من أسرة كريمة؟»

«سني!».

ردَّ جدي مفنّدًا رأيه، وتدخل عمي باقر بعصبيته يقاطع أبي:

«اترك أفكارك المتحررة، ولا تتدخل في زواج البنات».

أخبرتني عمتي ألطاف أن جدتي ببساطتها وعفويتها اقترحت:

«قولوا للرجل يصير شيعيًّا مثلنا».

ولأن أبي يدرك تعلق جدي بتجارته وماله، التفّ يسأله:

«كيف تواجه التجار السنة أصدقاء عمرك؟».

صفن جدي للجملة المزعجة، فأضاف أبي لافتًا نظره إلى هول ما ينتظره:

«ستكون فضيحة!».

«الفضيحة أن تزوّج أختك لسني».

انتفض عمي يصرخ بردّه، وكأنه أدرك تراخي جدي، وأضاف:

«الأصول أصول، لن نزوج سنيًّا».

حكت عمتي ألطاف لي، أن الأمر شغل الأسرة بكاملها. أخذ نقاشًا حادًّا استمر أكثر من شهرين، وكاد عمي باقر مرارًا أن يتضارب مع أبي. وأنها كانت تخبّئ نفسها عنه بعد أن صرخ بوجهها:

«أنتِ سبب البلوى!».

روت لي كيف أن حبيبها زار جدي أكثر من مرة في دكانه، قبّل رأسه، باسطًا أمامه استعداده لتلبية كل ما يُطلب منه. وأن أبي حثّها على مواجهة جدي وإخباره برغبتها الزواج من هذا الشاب. لكنها كانت تشعر بارتجاف ساقيها وأنهما لن تقويا على حملها للوقوف في وجه أبيها. أمضت طوال تلك المدة ترجو أمها باكية أن تقنع أباها، وظل أبي يحذر جدي:

«إذا انتشر الخبر فستخسر الكثير!».

ولأن جدي التاجر المليونير وزن الأمر بميزان الربح والخسارة، خاف على مصالحه وتجارته وملايينه، وربما استذكر عمق علاقته

وارتباطاته بأصدقائه السنة وحياته التي أمضاها منذ ولادته معهم، أو ملَّ رجاءات وملاحقات جدتي فوافق هو، بينما اشتط عمي باقر برفضه:

«زواج المصلحة!».

وتزوجت عمتي من حبيبها.

بعدما يزيد على ثلاثين سنة، حين فاتحت أبي في مطلع عام ٢٠١٠ بأن رجلًا ينوي التقدم إليَّ:

«يا مرحب».

عَبَرَ شيءٌ من البشر وجهه، وسألني:

«منِ الذي سيأخذ حبيبة قلبي؟».

ولكي لا أطيل عليه، أفصحت قائلة:

«رجل سني».

فجأة تكدّر ماء وجه أبي. شعرتُ به يتحاشى النظر إليَّ. خفق قلبي بخوفي وهاجسي: هل تغيّر أبي؟ هل انتكس الرجل الليبرالي المتحرر بقناعاته وأفكاره؟

«منْ هو الرجل؟».

سألني بنبرة أعرفها. نبرة أبي حين يهرب من الإجابة إلى السؤال. شعرت به يمتنع عن التصريح برفضه بشكل مباشر، ولأنني أحبه ولا أريد تعذيب نفسي وتعذيبه، وأمهّد طريق الرفض له قلت:

«رجل متزوج وله ثلاثة أطفال».

«ماذا؟».

كالطلقـة اخترقنـي السـؤال الصرخة! بعـث أبي كلمتـه بتعجبٍ وانزعـاجٍ واسـتغرابٍ وألمٍ وحسـرةٍ وتكذيـبٍ. أطلق سـؤاله وكأنه يقول: «لا أصدّق! أنتِ تُقدِمين على هذه الزيجة؟» .

«ترتبطين برجل متزوج؟».

رمى عليَّ سؤاله الحارق وقد حمّله نظرة أرجفت قلبي.

يا أبي، غريبة قصص الحب! لا أعلم كيف يلمّ القدر إنسانًا على آخـر! طوال عمري كنت أهـزأ ممن يقول: الزواج قسـمة ونصيب، لكن هذا ما حصل معي!

ظلت سـكاكين نظرته الحادة تجرّحني، فبررت قائلة بنبرة واهنة كي أخفف من انفعاله:

«سيُطلّق زوجته».

لكنه اشتط غضبًا:

«وأطفاله؟».

شـعرت أنه يخفي اعتراضه الحقيقي على مذهب الرجل، مُظهِرًا رفضـه لكونه متزوجًا. ولا أدري من أيـن قفز عليَّ موقفه من تزويج عمتي. وكما لو أني أذكّره بقراره قلت:

«أنتَ زوّجت عمتي ألطاف من رجل سني».

بدا لي وكأنني نكأت جرحًا غائرًا في قلبه، أو ذكرته بلحظة مدببة يتحاشى تذكّرها والاعتراف بها. تفصّد وجهه بضيق واضح، وقال بنبرة مهزوزة:

«الوضع مختلف».

صادمة كانت جملة أبي. هل قصد إلى إدانة نفسه، ووصف تحرره وأفكاره السابقة بالخطأ؟ دار ببالي أخبره أن عمتي تُمضي أيام حياتها وزوجها وعيالها كأهدأ ما يكون. لكني استكثرت عليه المناقشة بعد أن كشفت جملته عورة فكره. ولا أدري من أين انبعثت أمي، فأنا لم أنتبه لوجودها. قالت مخاطبة أبي:

«دلوعة بابا تتزوج سنيًّا!».

ولأن نظراتنا تقابلت، خاطبتني بضيق واضح:

«طوال عمرك تأتين بالمشاكل».

رحت أنظر لأبي كي يردّ عليها، لكنه ظل ساكتًا وكأنه يوافقها الرأي. وبالكاد تطاوعني كلمتي وإعصار بكاء يخضّ صدري، قلت له:

«شكرًا يا بابا!».

ظل متكومًا على نفسه، متدثرًا بعباءة ضيقه وربما حرجه. تلك اللحظة كانت بداية النهاية لعلاقتي بأبي، فقد سوّر هو قلبه في وجهي. ما عاد يحكي لي عن شؤون عمله، ولا عاد يخصّني بما يثقل عليه. حتى إنه صار يتحاشى الجلوس معي، خوف أن أفتح معه موضوع زواجي.

أبــي عاش عمــره محبًّا للفكر والثقافــة قارئًا نهمًــا لكتب الأدب والاقتصاد والفلسفة، ومتابعًا يوميًّا لما يجري

على ســاحة السياســة. رجل اتخذ من الرئيس جمال عبد الناصر والقومية العربية شعارًا لحياته، وكان يرى أن الوطن العربي الموحد قادم مهما وقفت الظروف الصعبة بوجهه. وكان إلى جانب صداقاته لزملائــه التجــار السياسيين، صديقًــا وجليسًــا محــاورًا للكثير من الكتّاب والروائيين والفنانين والمثقفين. وعاشــقًا للفن التشــكيلي، وتكاد لوحات أشهر الفنانين الكويتيين والعرب تغطي جدران بيتنا.

بعــد ســنتين من مفاتحته بأمــر زواجي، دار ببالــي أن أطلعه على رغبتي في الاســتقلال والانتقال للســكن وحدي في شــقة تخصّني. كنــتُ خائفة ومتأكــدة من رفضه، لكنــي كمن يودّ ســماع قناعة قلبه صريحــة على لســان الآخــر، أو منْ يتحفز لفقء دمــل ملَّ وتعِب من الحــك حولــه.. كنا نجلس هو وأنا بعد العشــاء، بينما جاءت ســماء ديسمبر ملبّدة بالغيوم لتجلس بيننا عبر نافذة الصالة الكبيرة. تخيّرت لحظة هدوء، وسربت جملتي بحذر:

«أفكر بشراء شقة».

شعرت وكأن تيارًا كهربائيًّا صعق أبي. نظر إليَّ لثوانٍ قبل أن يسألني:

«تتركين البيت؟».

كان يعني بيته، وربما عني علاقتي به، وانسحابي من حياته وحياة الأسرة.

«لن أترك أحدًا».

وددت لو أقول له إن العالم تغيّر، وإني أمتلك الحق بأن أحيا حياتي بسلام كما أحب.

منذ كنتُ صغيرة، وبالرغم من ودٍّ علاقتنا، ظل أبي ينزعج حين أردّ عليه أو أقول شيئًا لا يعجبه أو يضايقه. دائمًا أسرّ لنفسي: أبي الديمقراطي الدكتاتور! أحيانًا يُعلّق بجملة صغيرة، وأحيانًا ينام على سكوته لساعات أو أيام قبل أن يردّ عليَّ.

«أنا ضد سكنك وحدك».

كنصل السكين لمعت جملته. وأنتظر إتمامها، أوجع قلبي وهو يقول:

«بعد موتي أنتِ حرة اعملي ما تشائين».

أبي يمنحني حريتي بعد موته، يأذن لي بالانفصال عن الأسرة! لا أدري كيف فاضت دمعتي، ولا أدري كيف انطلق حسي عاليًا بنحيبي وبكائي حتى إن أمي جاءت راكضة من غرفتها. هل كنتُ أبكي موت أبي المخبّأ، أو موت علاقتي به، أو أبكي رِدّة فكره، وحظي العاثر الذي جعلني أتعلق برجل متزوج وسني؟ سألتني أمي:

«ماذا حصل؟».

كرهت الردّ. انسحبت وبكائي أجرّ خيباتي. ولا أدري ماذا قال أبي لأمي، وتصبّ كلماتها في أذني صرخت:

«شقة للقاء الحبيب».

تجمّدت في مكاني لإهانتها، وللمرة الثانية توقعت تدخل أبي مدافعًا عني وعن تربيته لي، يردّ على اتهام أمي الجارح، لكنه ظل صامتًا. فخاطبتها بحرٍّ لوعتي من وقفتي قاصدة إسماع أبي:

«شكرًا على الثقة».

في تلك الليلة رعدت السماء ومطرت بغزارة، وكأنها تحاول أن تشاركني ألمي. فلقد بكيت كما لم أبكِ في أي ليلة في حياتي. شعرتُ أني فقدت أبي. أحسست بالحزن يخنقني، وأني غير قادرة على سحب أنفاسي، وأن صخرة ثقيلة تجثم على صدري. لم أكن أبكي اعتراضه على فكرة انتقالي للسكن وحدي. لكني بكيت تجاهله الرد على إهانة أمي. كيف لأبي أن يتنكر لعلاقتنا الخاصة، يتخلى عني، أنا التي عشت عمري متعلقة به أصاحب خطوه، وأهبّ فرِحة لتنفيذ كل ما يطلبه مني. كلمة واحدة منه كانت تشعلني وملاحظة عابرة تطفئ همتي واندفاعي؟ عشتُ عمرًا مقتنعة بأني الأحب والأقرب إليه! حزَّ بقلبي تخليه عني، واستوقفني انتقاله من الفكر الإنساني الرحب، إلى الفكر المنغلق. دار ببالي السؤال: هل يتساوى أبي بأمي؟ وما الذي غيّر أبي ليهوي بأفكاره من علوٍ إلى قاع؟ أبي الذي كانت روحي تهدأ لحظة أشمّ عطره، واعتصر نفسي لصدره. الذي كان يضاهي كل العائلة بمحبته لي، مرددًا أمام الجميع:

«كوثر ابنتي الأحب».

ما الذي غيّر أبي؟

في تلك الليلة بكيت خسارتي لأبي وكأني أستبق ما سيأتي.. بكيت وجعي لفقدان رجل كنت أستند إليه كلما داهمتني هزّة من هزات الحياة الكثيرة، في مجتمع ذكوري متخلّف يرى الرجل وحده رمزًا للقوة والحق. ليلتها قررت أن أستند إلى حائط قلبي، فلقد علمتني الحياة أنه في أوقات الشدة، ليس للإنسان إلا أن يستند وحيدًا لحائط روحه. قلتُ أعزي نفسي: لأبي الحق أن يتصرف كما يشاء، ولي حقي.

مع اندلاع التظاهرات العربية في بداية ٢٠١١، وتحديدًا أحداث مصر، اندلعت روحٌ جديدة في قلب أبي. تغيّرت نظرة عينيه وحسه. أبي صاحب الخمسة والستين عامًا امتلأ حماسًا يتابع مظاهرات وصدامات «ميدان التحرير» لحظة بلحظة. ظل يردد وكل ما فيه يضجّ بانفعاله:

«أخيرًا تحركت الشعوب».

ويخاطبني بحسٍّ يقطر حماسة:

«الشباب والناس البسطاء خرجوا هاتفين: الشعب يريد إسقاط النظام».

هجر أبي عاداته، صار يُمضي الساعات ملتصقًا بشاشة التلفزيون، يتابع الأخبار. يتنقل بين محطتي «الجزيرة» و «العربية». ولأننا نعيش نحن الثلاثة في البيت: أنا وهو وأمي، شاركته جلساته وأحاديثه، وكم ردد عليَّ بنشوته:

«عشنا عمرًا ننتظر هذا اليوم».

كنتُ بين آنٍ وآخر أختلس النظر إليه: الرجل الكويتي الغني الليبرالي الذي درس في الجامعة الأمريكية في بيروت. رجل القومية الناصري، صديق الكتّاب والمثقفين العرب.. حين اندلعت أحداث ليبيا واليمن وسوريا، لبس وجه أبي سحنة مكفهرة مخيفة ما عرفته بها. قال لي:

«سيتغير الوطن العربي».

وأضاف:

«المواطن العربي كسّر جدار الخوف».

أربكني أبي بتحوله. عشت عمري لصيقة به. لا يكاد يمرّ يوم دون أن نجتمع على الغداء، نجلس في غرفة المكتبة، فيحكي لي عن اجتماعاته ومشاريع سفره ولقاءاته بأصدقائه الكويتيين والعرب في بيروت والقاهرة ودمشق. وما يلبث أن يشير إلى كتاب، ويقول:

«هذه رواية رائعة».

ما الذي غيّر أبي؟

«الشعوب تحركت».

ظل يكرر عليَّ. قلت له مرة:

«الأحزاب المتأسلمة قفزت على السلطة».

وكما لو أني قرصته على مكان وجعه. دخل كهف سكوته المظلم، وبعد فترة قال:

«سرقوها..».

خنس لثوانٍ ليقول بصوت موجَع:

«الممارسة ستفضحهم. لن يعمّروا طويلًا. لكن.»..

ترك كلمته الأخيرة فاغرة فاهها المخيف، وبقيت أنا أنتظره يكمل، وبعد فترة انبعث صوته دون أن ينظر إليَّ:

«سيكون الثمن غاليًا».

التحم أبي فجأة بالتلفزيون، ظل لأكثر من سنة يتابع الأحداث العربية الدامية ليل نهار، وتدريجيًّا راح يبتعد عنها، حتى هجرها وهجر حياته التي اعتادها واعتدتُ أنا أن أراه فيها.

جلوسنا معًا أمام التلفزيون رمم شيئًا من الفتور في علاقتنا، لكنه ما لبث أن انزوى بنفسه، واستوطن وحدته في مكتبته وقراءاته. أفزعتني هيئته مساء دخلت عليه المكتبة. كان ممسكًا بأحد الكتب. غائبًا وسط صمت ووحدة غرفته، ودون أن ينظر إليَّ قال:

«أود البقاء وحدي».

ما الذي هزَّ أبي وأثار حماسته، وما الذي كسره ورمى به إلى حفرة وحدته؟

سألته مرارًا:

«ما بك؟».

«لا شيء».

بعث بنبرة واهنة. رحت أنظر إليه، ويبعد عني نظرة عينيه الرمادية أرسل وحزن صوته:

«نحن ندخل نفقًا مظلمًا».

دار ببالي أسأله عمن يقصد بنحن، لكنه صَمَتَ بعدها وقد ران اليأس على وجهه قبل أن يقول:

«ستجتاح بلداننا الفوضى، ويلتهم العنف الأصولي والدم أيامنا القادمة».

أحداث البلدان العربية جعلت من أبي إنسانًا آخر. بموت عشرات الآلاف، ووصول الأحزاب المتأسلمة إلى القيادة. اكتسى وجهه حزنًا وتهدلت نظرته. خرس عن حكاياه ودخل صمتًا حجريًا كصمت أهل القبور. انصرف عنا؛ أنا وأمي. ما عاد يخرج لجلسات ديوانية أصدقائه، وحتى مجيئهم إليه قلَّ جدًّا. وحده عمو طالب ظل يمرّ به بين آن وآخر. يجلسان معًا وقد يحمل له رواية أو أحد كتب سلسلة «عالم المعرفة» الصادرة عن المجلس الوطني.. أصرَّ أبي على أن يصادق وحدته في مكتبته. لجأ لقراءاته منطويًا على هواجسه وألمه. وفي آخر حديث لنا، همس بي بحسٍّ يقطر توجعًا:

«صار الحلمُ بعيدًا!».

عجيبة هي أمور الحياة. حالة أبي الجديدة بكآبته وعزلته انعكست على علاقتي بمشاري، فما عدت أتصل به، ولا عادت روحي تطرب لاتصاله، ولكنه فهم أنني مللت مماطلته، انكسر مرارًا وهو يعترف لي:

«أحبك».

وأعاد عليَّ وعده:

«سأرتب وضعي، ونتزوج».

كان يتهرب من كلمة طلاق.. أفهمته أن ضيقي لا علاقة له بعلاقتنا وزواجنا، وأن قلبي يتقطع حين أرى أبي بيأسه وعزلته وصمته، لكن كل شيء انفرط يوم انطلقت صرخة أمي الملتاعة:

«أبو جميلة!».

لا أدري لماذا تأتي كل هذه الذكريات إليَّ في هذا الصباح.. كأني أودّع عمرًا لأدخل حياةً جديدة بزواجنا.. البارحة تصورت أن صباح اليوم سيكون أجمل صباحاتي، وهأنا ممددة على فراشي، وإلى جانبي تتمطى أسئلة الخوف بين الفينة والأخرى!

خبرتي مع صديقاتي لا تسرّ. كل واحدة تشكو على طريقتها مرَّ الشكوى من مشاكلها مع زوجها! حتى إنني بدأت أتيقن أن بعض الفتيات يتزوجن من أول رجل يطرق بابهن دون أي تروٍّ، وأن الفتاة تلهث وراء الزواج أملًا في استقرار عاطفتها وإكمال وجودها الإنساني؛ لأن روحها تهفو لمعايشة حياة أخرى؛ هربًا من الوحدة والعنوسة، لكنها سرعان ما تقع في عناء الحياة الزوجية وشقائها.

حين زرت بيت عمو طالب قبل مدة، لم أجده، وبعد أن أنهيت لعبي مع الصغيرة فادية، خرجت إلى الصالة للجلوس مع شروق:

«تعبت».

شكوت لها أبثّها نفاد صبري، فراحت ترنو إليَّ بهدوء نظرتها، فأكملتُ أخاطبها:

«لا أدري كيف ستنتهي علاقتي بمشاري».

شعرتُ أنها ارتبكت، وكأنها تخفي شيئًا عني. ولحظة قلت لها:

«أنا خائفة».

شرحت لها أن كل صديقاتي يشتكين من أزواجهن، علا وجهها ما يشبه ابتسامًا ذابلًا، وتنهدت قائلة:

«وأنا أشكو من طالب».

لثوانٍ اعتقدت أنها تقول جملتها على سبيل المواساة، لكنها أكملت ونبرة توجع في حسّها:

«لا أكاد أجلس معه، طوال وقته بين القراءة والكتابة».

وانعطف صوتها وهي تبثّني شكواها:

«في السنوات الأخيرة علا الضيق نظرته، وصارت أبسط الأشياء تثير غضبه وصراخه!».

رحت أنظر إليها وقد غَشِيَ وجهها شيء من ألم:

«ما عاد يحتمل أي صوت أو نقاش في البيت، يريد لنا أن نعيش في الصمت..».

سكتت فجأة وقد تندت عيناها بدمعهما، ومن بين تحشرج حسّها قالت:

«يتحسس أكثر حين يكون في كتابة رواية جديدة».

أنا عشت طوال حياتي لا أقف عند رجل، لكنني وقفت عندك يا مشاري!

أذكر تلك المكالمة، يوم طلبت مني لأول مرة أن نلتقي..

في الكويت، لقاء شابة بشاب، أو امرأة برجل في العلن، في مكان عام أمر لا يُقدم أحدٌ على اقترافه. ليس من فتاة تجازف بسمعتها وسمعة أهلها وتجالس شابًّا حول فنجان قهوة في مكان عام! يومها قلت لك:

«حدد المكان».

ردودي الجاهزة تصيبك بالصدمة. وتلكؤك يضايقني. ولأنك سكت سألتك:

«أين تريد أن نلتقي؟».

بعثت تردّ:

«اختاري المكان».

«أي مكان عام».

اقترحت عليك فخنست خلف سماعة التلفون. أنتَ رجل معروف فـي المجتمع ومتزوج؛ لذا تخاف من لقـاء أي امرأة والجلوس معها فـي مكان عام؛ حرصًا على سـمعتك وعلى اسـتقرار زواجك. وبعد ثوانٍ أرسلت جملتك التي ترشح برائحتها الذكورية الزنخة:

«نلتقي عندي في اليخت».

«نلتقي في أي «مول» أو مكان عام».

أكدت عليك، ففح صوتك:

«اليخت أستر».

«أستر لك».

وأصارحك، قلت لك:

«لن أجيء إلى يختك، ولن أجتمع بك في شقة خاصة أو شاليه».

«أنتِ لا تريدين لقائي».

«صحيح».

أجبتك، وأسرعتُ أنهي المكالمة.

كنـتُ في الصف الثالث ثانوي مسـاء كلّمت ولـدًا لأول مرة في حياتي، بعد المكالمة الثالثة اكتشـفت أنـه يحوم حول الحديث عن الجنـس، وأقطع عليه الطرق طلبت منـه أن يتصل بي بعد أن يقرأ أيًّا من روايات دوستويفسكي فلم أسمع صوته بعدها. وكنت في السنة الأولى في الجامعة حين تعرفت على أسـعد، شاب هادئ ولطيف.

أمضينـا فصـلًا دراسـيًّا بأكمله وهو يكتفـي بالجلوس خلفي يشـتم عطري، ويستمتع بالنظر إليَّ دون أن تصطاده عيناي. حين سألته:

«لماذا لا تنظر في وجهي؟».

انخطف لون وجهه، وتبعثر لسانه. وحين سألته:

«أنتَ تحبني؟».

تـرك علاقتنـا وهرب مني.. كأنـي بروح الرجل تعشـق من تمثّل أمامـه دور البريئـة.. ربمـا بسـبب ثقتي بنفسـي وجـرأة ردودي؛ أو بسبب شكلي وهيئتي وملابسي، كثير من صديقاتي ومعارفي يظنون السوء بي؛ لا لشيء إلا لصراحتي في قول ما يجب قوله!

منـذ مـدة لم أتـذوق سـيجارة علـى الريق. اليـوم يـوم زواجي، وأجدني مشـتاقة لسـيجارة حتى قبل أن أشـرب قهوتي الصباحية.. مضـت علـيَّ قرابة خمس عشـرة سـنة وأنـا أدخن. بـدأت التدخين وأنا في الصف الثاني ثانوي، وكان عمري وقتها سـت عشـرة سـنة. اصطحبت صديقة معي ودخلنا الحمام. هناك سحبت النَّفَسَ الأول مـن السـيجارة. بعد أقل من أسـبوع، وشـت بي إحـدى التلميذات للمدرِّسة الأولى، فنادت عليَّ:

«تدخنين في الحمام».

صرخـت عليَّ بجملتها وصوتها ونظـرة عينيها تطالبني بالنكران ودفع التهمة، فقلت:

«المدرسة تمنع التدخين في الساحة».

قفز الاستغراب على ملامح وجهها، علا صوتها صارخة بي:

«بنت».

لكن صرختها مرت من بين ساقيَّ أنا الواقفة، بينما هي الجالسة خلف مكتبها:

«ستتصل بأهلك».

«أنا أدخن مع أبي».

لا أدري كيف خرجت جملتي، فزاد ارتباكها، وطردتني بعد أن فتشت جيوبي بأصابع عصبية. في اليوم التالي، وقّعتُ على تعهّد لدى المشرفة الاجتماعية بأن أتوقف عن التدخين وإلا سأعرض نفسي للفصل من المدرسة.

كنتُ في الصف الثالث ثانوي يوم طردتني ناظرة المدرسة، فصلتني لمدة أسبوع كعقاب على عراكي مع أبلة سهير مدرِّسة مادة الرياضيات.. لم يتقبّلها قلبي لحظة وقعت عيناي على وجهها في أول حصة من العام الدراسي. ومؤكد أنها نفرت مني بما يعادل ضيقي منها، فالبشر، وخلافًا للمحبة، يتنافرون كرهًا بالدرجة نفسها. مع كل درس كان ينمو في صدري وصدرها جبل البغض. كانت تقصدني في كل حصة لحل الصعب من الأسئلة، ويدغدغها التفكه بإجاباتي إذا حدتُ عن الصواب. ولا تكاد تعتقني من نظراتها المسلطة على كل حركة أقوم بها. وأكثر من مرة عاقبتني بحبسي في الفصل أثناء الفرصة.

لا يمكـن أن أنسـى تلك الحادثـة. كانت حصـة الرياضيات هي أول حصـة فـي ذلك اليوم. قادتنا أبلة سـهير من طابـور الصباح إلى الفصل، ولحظة دخولنا طلبت منا كشـف دفاترنا على حل الواجب المطلوب. وكالعادة بدأت بي أنا. وقفت بجانب مقعدي:

«أين الواجب؟».

قدمـت لهـا دفتـري، وقد شـعر قلبي أن أمرًا سـيئًا سـيقع. بقيت جالسة، فصرخت بي:

«قفي».

راحـت تدمـدم بكلمـات لـم أفهمها. شـيءٌ مـا أمسـك بي عن الوقوف:

«فزّي يا بنت».

صرخت بصوت أعلى، وأضافت:

«قلة أدب».

فاجأتني تهزّ الدفتر بوجهي:

«أين بقية الواجب؟».

«هذا كل الواجب».

«مش صحيح!».

قالـت بلهجـة عصبيـة، بقيت أنظـر إليها، وأنـا لـم أزل جالسـة، فمدت يدها تمسك بكتفي تهزّني:

«قفي».

كرهت إهانتها، حاولت أبعد يدها عن كتفي، فانطلقت مسبتها:

«حيوانة».

وارتفعت كفها لتدوي صفعتها على وجهي. شعرتُ أن شرارًا متناثرًا تطاير من عينيَّ وخدي، ولا أعرف كيف قفزتُ عليها! نشبتُ كفّيَّ في جانبي رأسها، دفعتها لتقع على ظهرها، وجثمتُ على صدرها وقد نبتت أظافري في جلدة رأسها أكاد أنتزعها، بينما أسناني تصدر صريرًا عاليًا. على صوت صراخها، تدخلت المدرسات ليخلصنها من بين يديَّ. ومن يومها صار جميع من في المدرسة يناديني ب «النمرة».

غريبة هي الحياة! كنتُ أصرّ على ممارسة كل شؤون حياتي في العلن. لكن، علاقتي بك انتهت بأن أوافقك على زواج سري!

ربما هذا ما يخيفني. سأذهب اليوم إلى قرارٍ لا أدري إلى أين سيأخذني!

ما توقعت يومًا أن أرضخ لإرادة رجل وأكون زوجة ثانية! وكنتُ سأنفجر بضحكة مجلجلة لو أن عرّافة أخبرتني قائلة: ستتزوجين رجلًا متزوجًا وله أطفال!

عادت الأسئلة تتحرك قرب رأسي: ما الذي يجبرني على مسايرة مشاري؟ أمي صرخت بي في عراكنا الأخير:

«خلصوا رجال الكويت؟».

لطمني سؤالها، وهي تضيف:

«سني ومتزوج وعنده ثلاثة عيال!».

ولأني بقيت ساكتة أكملت تسألني:

«كيف ترضين على نفسك؟».

قاسٍ سؤال أمي! خجلت منها ومن نفسي. لم أخبرها أني أحببت مشاري كما لم أحب أي رجل في حياتي. وأن الحب يضعضع قناعاتنا فننجر خلفه برؤوس مطأطئة.

مشاري، سرٌّ هو الحب! خيالات أمانٍ تلعب بنا فنتبعها كالمنوَّمين! لا أدري كيف أحببتك، ولا أدري كيف تعلق قلبي بك!

قد لا تدري بأني لن أنسى تلك اللحظة، مساء كنا أنا وأنت في سيارتي نجلس في مقابل بحر منطقة «الشويخ»، لحظة انبعثت سيارة الشرطة. توقفت بجانب سيارتي، وترجل شاب شرطي لينقر على زجاج نافذتك، فاهتز شيء من الخوف في قلبي. أنزلت أنتَ جزءًا من زجاج النافذة، وتزجره قلت:

«نعم؟».

«منْ هذه المرأة؟».

سألك هو بنبرة مستفزة ردًّا على نبرة حسّك، ودون أن تردّ عليه، رفعت زجاج النافذة، وقلت تأمرني:

«سأنزل أنا، وتحركي أنت».

فتحت الباب بعصبية واضحة، ومن خلف الزجاج المرفوع وصلني صوتك تصرخ بالشرطي.. قد لا تعنيك تلك اللحظة، وربما طمرتها أحداث كثيرة، لكنني كلما تذكرتها تحرك شيء في قلبي ليقربني منك.

يا مشاري يا حبيبي، المرأة في كل مكان تعشق رؤية حبيبها يشتط مدافعًا عنها.

مشاري، إذا سارت الأمور كما خططنا لها، فغدًا لن أكون هُنا، سأشرب قهوتي وأتناول فطوري معك في جزر المالديف.. لماذا أنا خائفة؟

يُحزن قلبي أنك تغيّرت.. جنني عشقك واندفاعك للمغامرة، وهأنا أراه يذوي دون أن تشعر أنت به حتى قبل أن نتزوج!

يوم زرت «يختك» بعد كثير إلحاحك. كان البحر رائقًا. ارتديت أنا لباس النجاة وطلبت منك أن تلبسه، وحين رفضت قلت لك:

«سأنزل».

أسرعت توافق. وخلافًا لاتفاقنا تحركت باليخت، فذكّرتك:

«اتفقنا أن أرى اليخت، ونتغدى معًا».

ما إن تحرك اليخت حتى تغظت سحنة وجهك بلونٍ أخافني. ابتعدنا عن الشاطئ، فبدت منطقة «السالمية» بأبراجها وعماراتها، ومن الجهة الأخرى لاحت أبراج الكويت الثلاثة بتدرج ألوانها الزرقاء.. كانت الساعة قرابة الثانية ظهرًا، وبحر الكويت مرآة بين

الزرقـة والرمـادي والأخضـر. رميت أنتَ المرسـاة، وبـدأت بفتح أكياس الغداء، لكني كنت أشم رائحة رغبتك أكثر من رائحة الأكل. اقتربـت تلتصـق بـي تقبلني. ولأنني كنـتُ قد اتخذت قـراري بعدم السماح لكَ بمسّي، قلت لك:

«نتغدى..».

نسـيت أنتَ الأكل، ونسـيت وعدك لي.. ولأنـه لا يمكن لرجل ممارسـة الحب مع امرأة إن هي لم ترد. نفضت نفسي مبتعدة عنك، وأشرت إليك:

«نرجع».

تصـورت أنـتَ أنني أقـول كلمتي لأنـني ضعفـت، أو كنوعٍ من التمنـع والـدلال، فمـددت يدك نحـوي لتحضننـي، لكني صرخت بأعلى صوتي:

«خلص!».

ربمـا جنـون نبـرة صوتـي أو توحـش نظرة عينـيَّ نطـق بضيقي ونفوري منك. فتحولت رجلًا فأرًا.

«مغفلة من تثق برجل!».

قلت لك والصراخ والضيق بحسّي:

«ارجع».

رفعت المرساة بمذلة. بقيت بعيدة عنك، ولحظة توقف اليخت، لملمت ضيقي من نفسي ومنك، ومسرعة أخذت طريقي للنزول، فلحقني صوتك الصفيق:

«نتغدى».

ودون أن ألتفت إليك رددت:

«كُلْ وحدك».

-٧-

هُنـا في غرفـة مكتبي، يُعاود اللحن التمـوج في روحي، فأنصت لمحمود الكويتي يردد وحسّ قلبه الشجي:

الخـد ياضـي لـي بـرق وسـميه والعيـن تشـبه سـاعة الربانـي

أتخيل تناغم خطو راقصات السامري بثيابهن السود الطويلة والمذهبة ب «الزري»، والتي تشف بحياء آسر عما خلفها من ثياب، وهن يتهادين على استحياء بهزٍّ أجسادهن كأهدأ ما يكون الهزّ، في ساحة الرقص جيئة ورواحًا. ويلمع في ذهني السؤال: أي معنى ماكر تعجز عنه اللغة، فيتصدى الجسدُ بحركته للبوح به؟ أي مناداة محبوسة يتخلص منها ويطلقها فتأخذ طريقها لسلب لب الآخر! استحضر الشاعر وهو يجنّ برؤية لمعة البرق في خد امرأته، ويذوب بسحر عينيها اللتين تشبهان بسعتهما ساعة ربان السفينة. ولا يملّ اللحن من التذرع لخاطرها متوسلًا:

إرفعي البوشيّة

هُنا في سجن غرفة مكتبي، يقرصني «الدسك» في ظهري، ينبهني يرسل تنميل الخدر في ساقي اليسرى، فأتحامل على نفسي، أنهض وألمي؛ لأدور في غرفتي.

في أحيان كثيرة، أشعر كأن روحي عطِشة لشيء لا أعرف كنهه! يقسو العطش عليَّ، فتنبت الوحدة أنيابها المدببة في لحم قلبي!

احتاجت الوحدةُ لسنتين كي تثق بي وتأمن لي وتستأمنني على رفع نقابها الأسود، كاشفة عن وجهها المجدور، وصادقتها وأنا أزيح الغطاء عن بئر آلام قلبي كي أتسامر معها وأبثها همومي.

مع نهاية ٢٠٠٨، وبقصد التفرغ للقراءة والكتابة اخترت ترك وظيفتي مديرًا لإدارة الثقافة والفنون في المجلس الوطني، والعودة إلى الإدارة الهندسية بصفتي مهندسًا مدنيًّا.. صحيح أنني بقيت موظفًا في المجلس، لكني أدرت ظهري لأضواء المنصب الحكومي، وكأسرع ما يكون صدّت تلك الأضواء بوجهها وابتعدت وأهلها عني. حتى إن البعض ممن كان يتقرب ويتودد لي بسبب مركزي ونفوذي، صار يستكثر مجرد السلام عليَّ.

استوقفني الحدث، وكيف أن البعض يتقرب منك لمكانك لا مكانتك. رحت أتملّى بمتعة خبيثة انقطاع وصل بعض معارفي من داخل الكويت وخارجها، وكم تكشفت لي أنفس بائسة!

جئت زائرًا مقيمًا هُنا بين جدران غرفة مكتبي في المدرسة القبلية، ومعي أتت الوحدة تشاركني فسحة المكان، ودرج الصمت يحضر ليغمّس حرف خبزه معي في كأس الشاي الذي أحتسي..

في السابعة والنصف صباحًا أدخل مكتبي ملقيًا تحيتي على الفراغ. أجلس خلف مكتبي، أمدّ يدي إلى جهاز المسجل الذي ظل يلازمني منذ بدأت رحلة العمل عام ١٩٨٢، لتنطلق موسيقى هادئة بالكاد تُسمع، تمسّد نتوءات الهُنا.

أبدأ يومي بتفحص الرسائل الواردة إلى «إيميلي»، وأمرّ على صفحتي في «الفيس بوك» و «التويتر»، لأتابع بعدها ترتيب أمسيات جلسات «الملتقى الثقافي»، الذي أسسته لتسعد روحي بلقاء أصدقائي الأدباء والفنانين في بيتي بين مساء أحد وآخر. ثم أتفرغ للكتابة قرابة ساعات ثلاث، قبل أن تنبهني معدتي لجوعها، فأتناول «سندويشة» تعدّها شروق زوجتي، وتدسّها صباح كل يوم في حقيبتي. لأطير مسرعًا إلى متعة القراءة حتى الواحدة والنصف ظهرًا.

هُنا في غرفة مكتبي، وباستثناء ألم «الديسك» والوحدة والصمت لا يشاركني أحدٌ خلوتي.. يومًا بعد يوم تعلمتُ تجاهل خفق أجنحة الوقت طوال الساعات خارج الهُنا. أظل محاورًا لصمتٍ ناطقٍ يأخذ بيدي فأكتب جملة في روايتي الجديدة. لأقرأها مرات ومرات فأمحوها لأعيد كتابة غيرها.

ليس من يوم يشبه آخر، لكنها الأيام تلبس ثوب وقتها وتمشي خطو الدرب نفسه قاضمة لحظات عمرٍ لا يعود. أذكر أني كتبت مرة على صفحتي في «التويتر»: «الأيام تنتزع حصتها من لحظات أعمارنا وتغادر إلى غير رجعة!». أحيانًا تحطّ سحابة جزع أسود

فوق روحي، أتأمل سجني بوحدتي في الهُنا، فأهرب إلى عالم مواقع الإنترنت، أغوص في قراءة مواضيع النقد والشعر والموسيقى، أو أعيش أحداث فيلم وثائقي على موقع «يوتيوب».

فزعتُ حين رنَّ جرس تلفون المكتب. لثوانٍ رحت أنظر إليه، أربعة أشخاص يتصلون بي: شروق، وابنتي فرح، وصديق عمري عبدالعزيز، وأحيانًا صغيرتي فادية بطلباتها الملوّنة. ولبرهة توقعت أن تكون شروق هي المتصل.

«ألو».

«صباح الخير».

ميّزت صوت كوثر بنبرته المبهّرة بنكهة التدخين:

«تستقبلني أنا ومشاري؟».

فاجأتني ترمي بسؤالها عليَّ. ولأن طلبها أسرع يحضر أباها في قلبي، قلت:

«أهلًا وسهلًا».

«نصف ساعة ونكون عندك».

شوّشني طلبها بزيارتها مع مشاري، فأنا ما سبق لي أن قابلت الرجل أو جلست معه باستثناء رؤيتي لصوره في الجرائد كمسؤول في الدولة. أسرعت أترك توقعي لمقابلتهما، أعود متعجلًا لأضع لمساتي الأخيرة على الفصل الذي أكتب.

-٨-

«فسأبدأ مشوارَ..»

عبارتكِ تكاد تكتمل. أضواء الساعة الحمراء التي تجاور أنفاسكِ تشع بالسادسة والربع، نظرتِ إليها وكأنكِ تذكّرينها بالوقت فما زال النهار في أوله. خادمتك الفلبينية نائمة، بعد قليل ستستيقظ لتعدّ لكِ فنجان قهوتكِ الصباحية.

أبوكِ عوّدكِ على طقس فنجان قهوة الصباح.. هُناك في بيت الدسمة، في زاويته التي يقرأ فيها الجرائد باكرًا قبل خروجه إلى عمله، كان يتلذذ برائحة ومذاق فنجانه. وكان يحرص على تجهيز قهوته بنفسه. لا يشربها من يد صانعٍ آخر. يبتسم قائلًا لأمك:

«أنا أخبر بقهوتي».

ويعيد عليها في كل مرة:

«الشاعر محمود درويش له قصيدة رائعة عن تعلقه بفنجان قهوته!».

مساء انتقلتِ إلى هُنا، وبحزن الليلة الأولى، تكلمتِ وخادمتك تُشيرين إلى ركنٍ يقابل البحر:

«أحضري قهوة الصباح إلى هنا».

ربما لن يوافق مشاري على دخول الخادمة عليكما في غرفة النوم.

المكان يلبس علاقات وعادات أهله.. أي روح سيبثّها مشاري في جوانب شقتكِ حين ينتقل ليعيش معكِ؟ كثيرًا ما تخيلتِ وجوده إلى جانبك في الصالة تشاهدان فيلمًا، أو ترحبان باستقبال ضيوف.. ينتشر شيءٌ من الفرح في قلبك.. هل سيخبر مشاري أحدًا من أصدقائه عن زواجه منك؟ وهل ستستقبلان أحدًا في شقتكما، أم ستَبقَيْن ملاذ مشاري وملجأ هروبه من زوجته ومتاعب عمله؟

منذ فتحتِ عينيكِ، مع أذان الفجر وأشواك خوفٍ أسود تدبّ عليكِ.. تستذكرين منعطفات قصتك ومشاري، وارتجافات لحظات حياتك المقبِلة بين الأماني والرهبة. ربما كان هذا آخر صباحات الوحشة.. وحدك والصمت تكشِّفان هواجس قلبك لجدران غرفتك. لا يشاركك إلا خوفك مما هو آتٍ، بينما يبقى البحر في حبس حوضه الرباني المترامي، يتماوج خلف ستارة النافذة منتظرًا تحيتك التي تعوّد عليها.

-٩-

أرواحنـا الضعيفة لا تحتمل ثقل وطأة الحزن، ولا خفة لحظات الفـرح؛ لذا نحتاج دائمًـا لمن يقف إلى جانبنا.. كأنـي أدرك متأخرًا معنى اليتم، يتم مشـاركة الأحبـاب لحظات العمر الأجمل! يؤلمني أن أحـدًا لـن يقف اليوم إلـى جانبي يشـاركني يوم زواجـي، يزغرد ويرقص فرحًا ويهنئني بقبلاته. أخيرًا أدركت أن مناسـبات الفرح لا تكون فرحًا إلا بوجود من يشاركنا فيها.

أخواتـي الأربـع تزوجـن، ويـوم عقـد قرانهن كانت أمي تشـتط وتتوزع بين انشـغالاتها وسـعد توقعها وفرحها. يشتعل ويضج بيتنا بصخب الحركة والفرح والأصوات المتداخلة وابتسـامات الوجوه المستبشـرة. تأتـي عماتـي وخالاتـي وصديقـات أمـي ليشـاركنها احتفالهـا. تجهـد فـي عمـل «سـفرة القـران» وتُزينهـا كمـا هي في معتقداتنـا: صينية وعليها بعض الحلوى يتوسـطها القرآن كدسـتور حيـاة، ومـرآة لامعة تـردّ العين والحسـد عـن الزوجيـن، وتأمّلهما بحياة سـعيدة، وإلى جانبها حوض صغير تسبح به سمكة زينة دلالة

خصب. اليوم لن أغطّس قدمي بماء ورد، ولن يطحن أحدٌ سكر نبات فوق رأسي متفائلًا بحياة زوجية يغمرها السعد، ولن أستلم ليرة ذهبية.

اليوم سأخرج من شقتي وحيدة، وسأمشي وحيدة إلى جانب مشاري في ممرات قصر العدل الضيقة؛ للوقوف أمام قاضٍ، أعلن له موافقتي على الزواج كي يوثّق ويُصدّر ورقة عقد قراننا. البارحة سألني مشاري:

«ماذا تريدين مهرًا؟».

رحت أنظر إليه، ولا أدري لماذا جاء إليَّ وجه أبي، وخنقتني عَبْرة مفاجئة. دفعت قائلة:

«لا شيء».

وكما لو أني أستذكر شيئًا غاب عني، استدركت:

«خاتم».

ربما، الفتاة تبدأ الحلم بفرح يوم زواجها لحظة تنتبه لتكور أجزاء جسدها. ولحظة تطرق مسامعها الكلمات الملوّنة التي تتطاير من حولها:

«يا حلوة!».

«ما شاء الله كبرت البنت!».

«يا عروسة!».

أمـي كانـت تتوقـع أن أتـزوج قبل أختـي ثريـا. كثيـرون تقدموا لخطبتـي، لكني رددتهـم أجمعين. ما اقتنعت بأحـد منهم. وفي كل مرة كنتُ أرفض قائلة لأبي:

«لن تجبرني على الزواج!».

يطالعني بتلك النظرة الحنون التي أحب، ويهمس بي:

«أنتِ تختارين زوجك».

ويخاطب أمي التي لا يعجبها أسلوب كلامه معي:

«لن نجبرها على رجلٍ لا تحبه».

يـا أبي، مـا جبرتني على رجـل، لكنك انتفضت ولم تسـمح لي بالزواج ممن أحب!

لا أذكر متى بدأ هاجس الزواج بالمرور عليَّ.. أتذكّر كيف كنت أقـف عارية أمام مرآة حمامي الكبيرة في بيت الدسـمة في سـنوات مراهقتـي. أتفحـص تفاصيل جسـدي، وفي كل مرة يخرج السـؤال إليَّ من المرآة: «منْ هو الرجل الذي ستتعرين أمامه؟».

مـع تقـدم سـنوات عمـري، فَتَـرَ الإعجـاب بالجسـد، ليتحـول الهاجس إلى الاطمئنان عليه وتفقد عنفوانه من ذبوله.

لا أظنني سأقف عارية أمام مشاري اليوم بعد عقد قراننا.

كنا في أسبوع علاقتنا الأول حين رمى جملته:

«أنت أحلى بكثير مما توقعت».

بقيت ساكتة، فأضاف:

«طوال سنة وأنتِ تتعاملين معي برسمية، تصوّرتك امرأة جادة».

وضحك وهو يقول:

«اعتقدتك محجبة».

وتلكأ قليلًا قبل أن يقول:

«ما كنت أظنك امرأة لا تُقاوَم!».

شيء ما أزعجني في جملته، وأعبّر له عن ضيقي قلت:

«لا أحب هذا الوصف».

أشعر بقلبي يخفق الآن وأنا أتخيّل بأني سأصطحبه ظهر اليوم، أتأبط ذراعه وأتمشى معه في مجمع الأفنيوز.. أتمنى لو نتغدى سويًّا في أي مطعم أمام الجميع. أتمنى لو يشاهدنني أخواتي وأصدقائي ومعارفي. وبودي لو يشاهدني كل أهل الكويت قبل أن نسافر أنا وهو مساءً.

منذ فتحت عينيَّ فجر اليوم، وأنا وحيدة مرمية والصمت والهواجس هُنا في غرفتي. لا أدري لماذا تتكوم أسئلة الخوف إلى جانبي، بينما شيء أشبه بالألم يلفّ خاطري وقلبي!

ما طمعت بشيء مادي من وراء تعرفي على مشاري.. رسائله التلفونية واتصالاته وإصراره بملاحقاته، جعلتني أفكر فيه.

«ماذا تريد مني؟».

سألته في إحدى مكالماتنا الليلية، فأسرع يردّ عليَّ:

«ماذا تتوقعين أنتِ؟».

«أنتَ رجل متزوج..».

«الله يلعن الزواج».

قاطعنـي وقد لاح الغضب على حسـه، وكما لو أنه يرمي بجمرة تحرق لهاته:

«أنا أحبك».

ابتسـمت بيني وبين نفسـي غير مصدّقة، أو كأني أسـتكثر الحب على رجل متزوج وله أطفال:

«والله العظيم أحبك».

تعلقـت بمشـاري رجلًا يشـاركني لحظـات أيامـي.. بعد مضي ثلاث سـنوات على علاقتنا، لاح لي ما يشـبه يقينًـا بأنه يحبني، وأنه على اسـتعداد لتطليق زوجته، والارتباط بي والعيش معي. بدت لي تلك الورقة الرسمية البائسة اعترافًا اجتماعيًّا بارتباطنا.

لـن يأتـي أحـدٌ مـن أهلـي ليشـاركني لحظـة عقـد قرانـي، ولن ألبـس ثوب الزفـاف الأبيض، ولن تكون هنـاك حفلة وغناء ورقص وزعاريـد، ولن ألتقط مع مشـاري صورة للذكـرى في مقعد زواجنا المزين بالورود.. أكذب عليك يا مشاري لو قلت لك إن كل هذا لا

يهمّني! طلبت ورودًا لشقتنا، واتفقت مع مصور وسيأتي عصر اليوم ليلتقط صورًا لنا، تحفظ ذكرى يوم زواجنا!

ما تصورت يومًا أنني سأفكر في أمورٍ كهذه، وأن روحي ستقف مكللة بحزنها على مظاهر كنتُ أظنها تافهة، ما عرتها انتباهًا طوال عمري! يا حبيبي يا مشاري، أرواحنا، بعيدًا عن الوعي، تعاني وجعًا حين تمضّ السكين في لحمها الحي! هأنا أقتنع أن يوم الزواج يوم مختلف في حياة أي فتاة أو امرأة، وربما يكون يوم حياتها الأهم، ولكن.. البارحة قلت لي:

«زواج هادئ».

أردت أن أصحح لك: «زواج السر، زواج السرقة»، لكني تحاشيت إشعال خلاف جديد بيننا.

ترددت أخبر صديقتي منى بموعد زواجنا. شيء ما منعني.. في مرة سابقة ألمحت لها:

«سأرتبط بمشاري».

قفزت عليَّ تقبلني. فاجأني موقفها، وصوتها الحبيب:

«سنحتفل بكما أنا وزوجي».

يومها اغرورقت عيناي بالدمع، احتضنتني ومعًا بكينا.

لكنَّ صمتًا عابرًا غَشِيَ وجه شروق، حين أخبرتها قبل أيام:

نظرةُ عينيها أشعرتني كما لو أنها تخفي شيئًا عني. ولأني بقيت أنتظر تعليقها، سبقت دمعتها جملتها وترقرق حسّها وهي تدعو:

«ربنا يتمم بخير».

وتلوح على وجهها ابتسامة مسالمة، تغيّرت نبرتها وهي تقول:

«هدية زواجك ستكون مختلفة».

حتى السفر لم يكن مهمًّا بالنسبة إليَّ، لولا أنك اقترحته، وابتسامة عابرة تغشى وجهك:

«نتعرف على بعضنا كأزواج».

أذكر أول سفرة جمعتنا قبل حوالي السنة.. كنا قد اتخذنا قرار زواجنا، وكنت قد أكدت لي مرارًا بأنه أقرب مما أتصور، ووعدتني بحسٍّ قلبك:

«أنتِ زوجة عمري».

وأقسمت لي أكثر من مرة:

«أنا لكِ، سأنفصل عنها».

يوم أخبرتني أنك مسافر إلى لندن في مهمة عمل، تحركت بي رغبتي لتجربة السفر معك. خاطبت أبي في جلستنا المسائية وبوجود أمي:

«لديَّ دورة تدريبية في لندن».

لم تكن المرة الأولى التي أسافر وحدي.

«كم يومًا؟».

سألني بابا:

«أسبوع».

«ربما أجيء معكِ».

خفق قلبي، وأخفي تخوفي رددت مرحبة:

«الله الله، بابا معي في لندن».

لكنه ما لبث أن استدرك:

«ليس أكيدًا».

وتدخلت أمي:

«لن يسافر ويفارق سجنه».

كانت تقصد المكتبة، فهزَّ أبي رأسه وابتسامة أسى تلوّن وجهه:

«أنا مرتاح هُنا».

وكما لو أنه ينهي الحديث قال:

«سافري بالسلامة».

بحجة معرفتي وتعاملي مع شركة طيران طلبت منك أن أرتب لك حجز تذكرتك وفندقك، فوافقت دون أي تحفظ. رتبت حجوزاتك، ولي رتبت حجوزات تماثلها دون علمك. اخترت فندقًا مجاورًا لي. تبلبلت وارتبكت نظرة عينيك لا تعرف ماذا تقول وأنت تراني أدخل الطائرة قبل دقائق من إقلاعها لأجلس في المقعد الذي يجاورك.

«صباح الحب».

قلتُ لك والبسمة تلوّن حسّي. لكني لمحتُ شيئًا من ضيق المفاجأة يخمش وجهك، وتاليًا خمش روحي.

كنتُ أتوقع فرحك، وأن تمرّ الساعات الست بالحديث الهامس بيني وبينك، لكن ما إن أخذت الطائرة وضعها الأفقي حتى اعتذرت مني:

«لم أنم البارحة».

رتبت مقعدك ليستوي كالسرير، أمسكت بكفي تطبع قبلة عليها، قبل أن تلتف باللحاف وتخفي عني وجهك وتسقط في نومك، وأسقط أنا في خيبتي الأولى قائلة: «المكتوب يُقرأ من عنوانه».

الغربة تنزع عنا ثياب تحفظاتنا الثقيلة، وتجعلنا خفافًا يمكن أن نطير مع أول هبة كلمات. ربما المكان أو البشر أو الجو، وربما شعورنا بتحررنا من كل الرقابات التي تحجر على أرواحنا. ما إن حطت الطائرة على أرض مطار «هيثرو»، حتى شعرت أنني أتحول لفتاة أخرى.

لحظة نزلنا من الطائرة أمسكتُ بكفك، ومعًا سرنا ولو أني كنتُ أشعر بأنك محرجٌ وخائف من أن يراك أي من معارفك وأنا متعلقة بذراعك. كنتُ مأخوذة بأن أمارس حياة الحب معك، في المشية واللمسة والكلمة والبسمة والنظرة وشم عطرك، والتعرف على خبايا روحك. فالحب مشيٌ على درب الحياة مع شخص تعشقه الروح.

كان جو لندن شتويًّا، برودة تبلل المشاعر، وسماء قريبة ملبدة بغيومها الرمادية. خرجنا من المطار فوجدت سيارة مرسيدس جديدة بانتظارنا. أسرع سائق عجوز بملابس رسمية يسلّم عليك بما يظهر علاقة وطيدة بينكما. خاطبك بلهجة ذكرتني بأفلام سينما الستينيات المصرية:

«الحمد لله عالسلامة يا سعادة البيه».

أحسستُ به يكتم تفاجؤه بي ممسكةً بذراعك، ابتسم يرحب بي:

«أهلًا يا فندم».

فتح الباب لي، واستدار راكضًا يفتح الباب الآخر لك. تصوّرت أنه سبق أن مثّل الدور نفسه مع نساء أخريات من اللاتي عرفتهن. مشاعر كثيرة تلاطمت في رأسي وأنا أجلس إلى جانبك.. رجل مرّت قرابة ثلاث سنوات على علاقتي به، وهو في كل يوم يعدني بالزواج. أجيء معه إلى لندن، بعد أن هلك من ملاحقتي، وتلهفت روحي له. أوصلتني إلى فندقي. وقبّلتني قائلًا:

«في السادسة أمرّ عليك».

قبل السادسة كنت بانتظارك أجلس في بهو الفندق ولا أكاد أسيطر على خفق قلبي. حين دخلت كان شيءٌ في نظرتك ووجهك قد تغيّر. طلبت منك الجلوس لكنك أجبت:

«لن نضيع وقتنا بالجلوس».

كانـت الظلمـة المبللـة قـد نزلت علـى شـوارع لندن، السـيارة المرسـيدس السـوداء والسـائق كانـا بانتظارنـا. ومـا إن ركبنا حتى انطلقت السيارة. بدوت لينًا يغشى الابتسام وجهك. قلت:

«هذه سفرة مختلفة».

«لماذا؟».

سألتك ناظرة إليك، فأجبت:

«لأنكِ معي».

أخذتنـي إلى بار صغير قريب من شـارع «نايتس بريدج». طلبت بيرة، ونظرت إليَّ، فتبسمتُ قائلة:

«مثلك».

حكيت لي عن عشقك للندن، وأنك لا تقوى على فراقها. وتعثّر لسانك بالرد حين سألتك:

«أي الأماكن تذهب؟».

بقيـت مسـتمرًّا في قصصـك، وتفاجأت حين أخرجـت لكَ من حقيبة يدي تذكرتين، وأشرت إليك:

«إلى المسرح».

استغربت جملتي، وأوضح لكَ قلت:

«تعوّدت من أبي، حين أجيء إلى لندن أشاهد أكثر من مسرحية».

رحت تنظر إليَّ فأكملت:

«حجزت من الإنترنت تذاكر لأكثر من مسرحية».

كنت تنظر إليَّ بشيء من الاستغراب:

«الليلة سنذهب لمسرحية شبح الأوبرا».

وأنهض ممسكة بك من يدك:

«هيا».

غبت أنا مع عالم المسرحية، لكني أكثر من مرة اعتصرت كفك التي أحب، وقد داخلني شعور بأنك مشغول بفكرة ما. بعد انتهاء العرض كنتُ جائعة فأخذتك إلى أول مطعم «بيتزا» قابلنا، ومن ثم تعلقت بك، وركبنا سيارتنا فخاطبت أنت السائق:

«إلى فندق المدام».

شيء ما كهرب روحي بتلك الكلمة، بثّ فيها ما يشبه عطرًا مدوّخًا. لحظة وصلنا الفندق أسرع السائق يفتح الباب لي، ونزلت أنتَ تسير إلى جانبي:

«أوصلك إلى الغرفة».

نظرة غريبة لاحت في عينيك لحظة كنا في المصعد، وحين وقفنا أمام باب غرفتي اقتربت لتقبّلني هامسًا:

«أجلس عندك قليلًا».

دخلنا غرفتي، فشملتني الحيرة لا أعرف ماذا أقول. جلست أنت على أحد المقاعد وجاء الصمت ليشاركنا اللحظة. وأدفع شيئًا من تبعثري سألتك:

«غرفتي أفضل من غرفتك؟».

ابتسمت قائلًا:

«أنتِ الأفضل».

نهضت لتخطو نحوي، أخذتني إليك ورحت تقبلني وأنفاسك الدافئة تلفح روحي. كنتُ موزعة بين شوقي إليك وبين صدك. حاولت أنتزع نفسي منك، فنظرت إليَّ وقلت:

«نستطيع أن نتزوج هنا في لندن».

رحت أنظر إليك، وقد راح قلبي يخفق بسرعة، فأضفت:

«أنتِ حبيبة عمري».

وثانية عدت تحتضنني تقبّلني وأذوب بين يديك.

مشاعر كثيرة لعبت بي حين اندسستَ أنتَ إلى جانبي في الفراش.. تحافظ الفتاة على كنز جسدها سنوات طويلة، تعتني به وتجمّله ثم يأتي من يقطف هذه الثمرة الغالية. كم اعتنيت ودللت زوايا جسدي، وكم جمّلتها، وكم حاربت نفسي كي أنزل هذا الجسد في حضن رجل أعشق ليكون زوجي.. كنتُ راغبة في أن تسجل ذاكرتي كل ما يدور بيننا في تلك اللحظات.

تكلمنا همسًا لبعض الوقت، ثم ملت عليَّ تقبّلني. ولأن روحي تفطرت بعطشها وانتظاراتها وتوترها، فإن مسام جسدي كانت تفور بحرِّ نيران الرغبة. ولم يكسر عليَّ استمتاعي معك، إلا سؤالك النافر:

«أنتِ بِكر؟».

سكينٌ انغرس سؤالك في خاصرتي. فجأة خمدت رغبتي، آلمني أنك تستخف بكرامتي، وآلمتني أكثر صيغة سؤالك، وكأنك كنت تتوقع أن أكون غير ذلك. فأنا فتاة شرقية تربت على قناعة صون عرضها، وأن تكون رعشة جسدها الأولى في حضن زوجها. تركتك في الفراش ودخلت الحمام كي أبكي إهانتك لي وخيبتي فيك. ولأنك شعرت بقسوة سؤالك طرقت الباب تنادي عليَّ:

«كوثر، كوثر».

لم أردّ عليك، فقلت:

«أنا آسف».

أطلت بقائي في الحمام، فلم أجدك في الغرفة عند خروجي؛ مما بعث الراحة في نفسي، وجعلني أتغطى بحزني وأنام بمجرد وضعت رأسي على المخدة.

كان الوقت باكرًا حين سمعت طرقًا على باب غرفتي، وكم كانت دهشتي حين وجدتك تقف في مواجهتي حاملًا باقة ورد:

«صباح الخير يا كسلانة».

رحت أبحلق فيك، فقلت:

«أنتظرك تحت».

كانت المرسيدس السوداء والسائق بانتظارنا. أخذنا إلى محطة «فكتوريا» وهناك قلت لي:

«سنذهب إلى مدينة برايتون».

قرأت في عينيك نظرة جديدة، شيئًا من حب وإقبال ومراعاة:

«قرابة الساعة بالقطار».

دار ببالي أنك تجبّر كسر الليلة الفائتة، لكنني انتبهت إلى أنك تسحب خلفك حقيبة صغيرة. فقفز مني السؤال:

«ماذا عن المؤتمر الذي جئت من أجله؟».

«أنتِ المؤتمر».

قلت ضاحكًا ترد عليَّ.

حين وصلنا برايتون، وحده المطر كان باستقبالنا. ركبنا تاكسي فأعطيته أنت عنوانًا. نزلنا عند أحد محلات «مارك آند سبنسر»، قمت أنت بشراء الكثير من المواد الغذائية، استغربت شراءك فقلت لي:

«سنُمضي يومين هنا».

فاجأتني جملتك. أنا لم أجئ بأي شيء للإقامة. وكما لو أنك هجست ما أفكر به، قلت:

«اشتري كل ما تحتاجين».

إحساس غريب ومنمل راح يدب فيَّ ليبعثرني، سأقيم معك في مكان واحد.. بدأت بفرشاة ومعجون الأسنان الذي أحب، وفرشاة الشعر، ومانع للتعرق، وزوج من الملابس الداخلية، ووقفت كثيرًا لاختيار بيجامة النوم. فأنا أحب بيجامات القطن الناعم، وهناك أكثر من «موديل» لفت نظري.

حملنا أكياس أغراضنا أنا وأنت؛ لأجد نفسي بعد أقل من عشر دقائق في شقة مرتبة ونظيفة تطلّ على شاطئ البحر، وصوتك:

«هذه شقتي».

قابلتني صور زوجتك وأطفالك، وصورك في ثوب التخرج في الجامعة، وصور عائلية لأناس لا أعرفهم. أدرتَ موسيقى هادئة، وبينما كنت أنا مشتتة وتائهة في تأمل الصور، دار ببالي لن نعود إلى لندن الليلة، ولن نذهب إلى المسرح.. ازدحمت عليَّ أفكار كثيرة، لكنك خرجت لابسًا بيجامتك، وقلت لي:

«تعرفين الطبخ؟».

استغربت سؤالك، فأكملت تخبرني:

«أنا سأطبخ اليوم».

ابتسمت لك، وأنا أقف خلف النافذة أنظر إلى السماء الرمادية وهي تلتقي بسطح البحر في البعد. دار ببالي هل تأتي دائما بالنساء لشقة عائلتك؟ راحت صور زوجتك بنظرة عينيها الشاخصة

تلاحقني من كل ركن في الشقة. استبدلت ثيابي ومعًا دخلنا المطبخ. لأكتشف فيك رجلًا ولعًا بالطبخ، مُلمًّا بأدق أسراره، ومتمرسًا فيه. إحساس غريب مرَّ عليَّ فاقشعر جسدي. كنتُ أتابعك وأنت تستخدم السكين وكيف تتفحص حبات الأرز في ماء غليانها، وتسخن قاع القدر بقليل من الزيت والبصل.. أعددت طبق سمك مع الرز، وربما كانت تلك الوجبة الألذ التي تناولتها في حياتي.

بعد تناول الطعام، وقفت إلى جانبك نغسل الأطباق. شعور غريب راح يدبّ عليَّ: أنتَ وأنا في مكان واحد.

نمارس لحظات الحياة البسيطة بملابس البيت. قشعريرة ما عبرت جسدي، وشيء أشبه برائحة البكاء مرّ بخاطري. لكني سرعان ما تنبهت لوجود زوجتك معنا.. تخيلتها تدخل فجأة لتجدني معك بالبيجامة، وأتركك في المطبخ قصدت الصالة في مواجهة البحر الرصاصي. رميت بجسدي أحدق في لا شيء.. لا أدري من أين تسرّب نعاسٌ لذيذٌ إليَّ، سحب جفنيّ بأثقال خفية، فوجدتني لا أقوى على فتحهما. خرجت أنت من المطبخ، وما إن نظرت إليَّ، حتى تبسّمت قائلًا:

«نعسانة».

أخذتني من يدي إلى غرفة نومك. رميت جسدي المثقل بالخدر والأفكار على السرير، وبعد لحظات شممت عطرك الأحب، وشعرت بذراعك تندس تحت رقبتي، احتضنتني إليك، وكطفلة صغيرة تكوّرت في حضنك وتركت لجسدي أن ينطلق من أسره.

على سـريرك، فـي غرفة نومـك، وبينما زوجتك تطـلّ علينا من إطار صورتها المذهّب، حضرت بي شـهقة روحـي الأولى، وانبثق خيط الدم الذي بقي محبوسًا لما يزيد على الثلاثين سنة.

في شقة برايتون عشت معك أجمل ثلاثة أيام بلياليها، ليس لأننا مارسـنا الحب كأرق ما يكون ذوبان كل منا في الآخر، وليس لأنني تعرفـت معك على معنى رعشـة الحياة، وليس لأننـي تذوقت طعم غفـوة مـا بعدها، وليـس، وليس، وليـس .. لكن، في شـتاء برايتون الرمـادي ومطرها عانقت روحي روحـك، وذاق قلبي للمرة الأولى ألفـة صداقة المـرأة بالرجل، وحـلاوة اللحظة العابـرة حين تظللها هـدأة الحب، ويكـون الآخر ملء عينيك وحسّـك ويديك.. مسـاء الليلة الثانية، همست أنتَ بي:

«ولدت من جديد».

قُلتَ بحسٍّ يقطر بالحب، وأكملت وشيءٌ من التحسر في نبرتك:

«أين أنتِ من زمان؟».

ابتسمتُ لك، فأضفت:

«لن نفترق، ولن أبتعد عنكِ لحظة واحدة».

أحاديـث كثيـرة دارت بيننـا، ومـن بيـن يديـك تذوقـت أشـهى الوجبـات. وكنـتُ أفزُّ من نومي أبقـى ناظرة إليك غائبًـا في نومتك وأنفاسـك. شـيءٌ واحد ظل يكـدر علـيَّ لحظتي ويلكزنـي بين آن وآخر يُفسـد عليَّ سـرور روحي. وحده وجود زوجتك وأبنائك من

حولنا بصورهم التي تملأ الجدران والأرفف. ولأكثر من مرة صعد بي السـؤال: هل يحقّ لي سرقة زوج من زوجته وعياله؟ يتشعب بي السـؤال وينحدر بـي إلى وديان الوحشـة: كيف أنتزعـك من ماضٍ هـو كل حياتـك؟ هل حقًّا لن نفترق؟ هل سـتدوم اللهفة بيننا؟ لكن يُخيفنـي ويتضخـم بقلبي السـؤال: مـنْ يترك زوجتـه وأطفاله كيف سيتمسك بي؟

في مساء اليوم الثالث، كانت الساعة تقارب الثامنة، وكنتُ أجهّز نفسي للخروج معك، حين قفز مني ذلك

السؤال الشقي:

«تحب زوجتك؟».

كهربك السـؤال، ومـرَّ بألوانه الداكنة على وجهـك. لا أدري ما الذي أنطقني! ربما لأني أعتقد باسـتحالة أن يُخلص رجلٌ لي، بينما هـو زوج لامرأة أخرى! وربما لأن زوجتـك كانت تحيط بنا في كل حركاتنا. وربما لأن سـؤالًا آخر ظل يلاحقني منذ رأيتك تشتغل في المطبـخ: هل سـبق وطبخـت لزوجتك؟ وقد يكون شـيءٌ من ذنب قـد مـسَّ روحي وأنـا أتصور زوجتك فـي الكويت، تهتـم بأطفالك وتنتظـر عودتـك، بينما تمـارس أنتَ لحظات حياتـك وجنونك مع امرأة أخرى.

«ممكن تنسين المرأة!».

خاطبتني والغيظ في كلماتك. عزَّ عليك ذكر اسمها، أو أن تقول زوجتي:

«لماذا أنتَ معي؟».

سألتك فخيّط سكوت ملغوم فمك. عدت لاستنطاقك مع علمي بالإجابة:

«ما اسمها؟».

«لا دخل لك!».

صرخت بي، بينما جنّت نظرة عينيك تنفجر بوجهي:

«تعشقين النكد! كيف سأعيش معكِ؟».

زلزلني سؤالك! فجأة حضرت روح شريرة لتحلّ بيننا. وجدتني لا أطيق النظر إليك، ومسرعة دخلت غرفة النوم لأرمي عني البيجامة، وكالمجنونة لبست ثيابي وحملت حقيبة يدي لأغادر الشقة وقد استحالت مغارة مظلمة. وربما لأنك كنت طافحًا بضيقك، تركتني أخرج دون أن تعترضني، بينما ظل سؤالك المؤلم يضرب بمطرقته فوق رأسي: كيف سأعيش معك؟

كوّمت البيجامة التي اشتريتها معك لأرميها في صندوق قمامة، قبل أن أركب القطار. كانت عبرة بكائي معلقة على طرف شفتي، ولو أن شخصًا طلب مني الانتقال إلى مقعد آخر لانفجرت بالبكاء. جاءت إليَّ جملة أمي الموجعة:

«خلصوا رجال الكويت؟».

وظل سؤالك يهزّني: «كيف سأعيش معك؟».

لمت نفسي لتمسكها بك، واحتقرتها لأنني وضعتها في حضنك. ووددت لو أخمش وجهي بأظافري لأنتقم من نفسي، فأنا قرأت عالمك منذ لقائنا الأول فلماذا مشيت معك؟

مشاري، أنا الآن في شقتي، ممددة فوق سريري، لا شيء معي سوى خفق قلبي وخوفي من شيء أجهله!

أنا وأنتَ سنعقد قراننا اليوم. ولا أدري كيف سأتخلص من هواجسي؟

لحظة عدت إلى غرفتي في فندق لندن، اندفعتُ بنحيبي وبكائي ودموعي، أمسكت بي نوبة هستيرية من البكاء، وكأني أكفّر عن كل ما اقترفته معك. بعصبية حزمت أمتعتي وغادرت الفندق مسرعة خوف تأتي أنت إليَّ. وحين رنّ تلفوني باتصالك، كنتُ أنا في مطار «هيثرو» في طريق عودتي إلى الكويت. وكالعادة تجاهلت اتصالك كارهة روحي بسببك.

مُفزع الفراق بين الرجل والمرأة! كيف يمكن أن تُخرج إنسانًا من نبض قلبك! المرأة تمنح جسدها للرجل بعد أن تثق روحها وتطمئن لصدق نواياه ووعوده المتكررة بألف صيغة وصيغة، ويكون ذلك بمنزلة عربونٍ لصدق مشاعرها، لكن الرجل يأخذ مراده من جسدها كفاتورة تمَّ سداد ثمنها وعودًا عابرة. المرأة ترى في الجنس البدء، والرجل يعدّه المنتهى.

أكثر ما أخافني عند عودتي إلى الكويت هي تلك النظرة التي شعت بها عينا أبي لحظة دخلت البيت، وقابلني قائلًا بهدوئه المعهود:

«الحمد لله على السلامة».

ويرمي عليَّ جملته المزلزلة:

«فيك شيء متغيّر!».

أسرعت أخفي ارتباكي بابتسامة مكشوفة، تؤكد التغيّر أكثر مما تنفيه، قلت:

«لا شيء، ربما تعب السفر».

في اللحظة نفسها، ركض فكري يسترجع التغيّر الذي مسَّ وجوه أخواتي وصديقاتي بعد زواجهن. ولحظتها دار بذهني: هل ينعكس حرمان المرأة أو ارتواؤها جنسيًّا في عينيها، وعلى ماء وجهها وخطوتها؟

ابتعدت عن أبي أجرّ حقيبة سفري صاعدة إلى غرفتي، وقد شعرتُ بأن حائطًا جديدًا ارتفع يبعدني عنه.

شيءٌ ما أخافني في تغيّر أبي، ونَفَسٌ ثقيل ظل يجثم على صدري لأشهر، وأنا ألاحظ ابتعاده عن كل ما حوله، ولقد تأكد مساء أبلغتني أمي:

«أبوك طلب رؤيتكن أنتِ وأخواتك الليلة».

استغربت جملة أمي، فمساء كل يوم خميس تأتي أخواتي وأبناؤهن لزيارتنا ويمكثن حتى منتصف الليل. ويقضي أبي بعض الوقت معنا، ويتناول العشاء قبل أن ينسحب إلى المكتبة.

حامـلًا مظروفًا بين يديه، ومغطيًا وجهه بشـيء من الوهن، دخل أبي علينا. تحاشيت النظر إليه. جلس فنهضت أخواتي للسلام عليه، وما إن انتهين حتى فتح المظروف واستخرج ورقة ونادى على أمي:

«هذه لك».

أعطاهـا وثيقـة تملّك «بيت الدسـمة»؛ بيتنا الـذي نعيش فيه، ثم أعطى كلًّا من جميلة وفاطمة وزينب وثريا وأنا ورقة مماثلة:

«هذه وثيقة تملّك أرض».

أبي اشـترى خمس أراضٍ متجـاورة في منطقة «جنوب السـرة» لنا، كل قطعة خمسمائة متر مربع:

«ترددت في إعطائكن المبلغ خوف ضياعه».

وسكت لثوانٍ قبل أن يضيف:

«دائمًا تمنيت أن تتجاور بيوتكن».

شـعرت أن أبي يتكلـم بنبرة واهنة وغريبـة أخافتني. فجأة خضَّ البكاء صدري، وسـرعان ما غصصـت بعبرة تكاد تخنقني. فنهضت مخفية وجهي، أسرعت إلى غرفتي كي أبكي وداع أبي.

أقل من ثلاثة أشـهر فصلت بين هِبَة أراضي أبي لنا أنا وأخواتي، وبيـن انطـلاق تلـك الصرخـة المرعبـة.. لا يمكـن أن أنسـى ذلك المسـاء. كنتُ في غرفتي، وكانت السـاعة قرابة الخامسـة والنصف حين انطلقت صرخة أمي الملتاعة:

«أبو جميلة».

أخافني ذلك الحسّ المتوجع، رجفة غريبة أمسكت بركبتيَّ. لا أدري كيف ركضتُ إلى أمي لأجدها نصف واعية، ترمي بنفسها تقبّل يديّ وقدميّ أبي الممدد على فراشه. نادبةً بجملتها:

«أبو جميلة حبيبي!».

ثقلٌ غريب أمسك بقدميَّ يشدّهما إلى الأرض يمنعني عن الحركة، تلاقت عيناي بعينيها المفجوعتين، فخفق قلبي وكأني أرفض جملةً ملتاعة لاحت مبللة بالدمع في عينيها. بقيت أنا مسمرة في مكاني، وكأني أعجز عن الانحناء لألمس أبي. فدفعت هي وقد خارت قواها:

«أبوك..».

تركت كلمتها مشرعة وكأنها تخشى أن تنطق بتكملتها.

مات أبي بهدوء وسلام على فراشه. تقول أمي إنه بعد انتهاء الغداء، ولم تكن وجبة ثقيلة. قال لها:

«سأنام قليلًا».

وعلى عادته دخل فراشه، وحين استبطأته في جلستها أمام التلفزيون، نهضت لتتفقده، فوجدته باردًا في نومته. لماذا مات أبي بالسكتة القلبية؟ هل ضايقته أنا باختيار رجلٍ مغاير لتوقعه؟ ما الذي فَطَرَ كبد أبي؟ هل عجزت روحه عن معايشةٍ مآسي الواقع العربي الجديد وفواجعه؟ هل مات بحسرة خيبة تحقق حلمه العربي؟ هل

تهشّـم حلم أبي بصدره؟ هل كان مآل الحراك الشعبي العربي مخيّبًا لرجـل عـاش يحلم بوطـن عربي واحد، حتـى قضى عليـه وأماته؟ الطبيب قال:

«سكتة قلبية».

لا يمكـن أن يفارقنـي ذلـك المشـهد، لحظة دخلـت غرفة أبي، لأجـده ممددًا على ظهره كأهـدأ ما تكون هيئة النائم. لم يكن وجهه يحمل أي آثار لألم أو توجع. سـلامٌ غريب شـعَّ مـن وجه أبي وهو يدخل نومته الأبدية. في تلك اللحظة وأنا أخشى الاقتراب من رجُلٍ كان الزاد لكل حياتي، وقفت على بعد خطوات، وكأني أرفض الدنو منه ولمسه كي لا يتأكد موته. وقفت خانسة وكأني تلك الطفلة التي تحرص على ألا تزعج أباها في نومه، لا شـيء سـوى سـيل دموعي ورجفة ركبتي، سـريعًا متداخلًا مرَّ شـريط عمـري بصحبته، ولم أعِ نفسي إلا وأنا في فراشي وأختي جميلة إلى جانبي وقد عبث الحزن والبكاء في وجهها:

«كوثر حبيبتي».

كانت تحاول مواساتي، لكن كليْنا كان بحاجة لمن يواسي يتمه.

طـوال اليوميـن الأوليـن للعزاء وأنا شـبه منومة لا أعـي ما يدور مـن حولي، تأتي النسـاء لتعزيتنا أنا وأمـي وأخواتي وعماتي، بقيت صامتة لا أنطق بكلمة. وحدها ابنة عمتي خولة أعادتني للواقع مساء اليوم الثالث للعزاء، حينما خاطبتني بقولها:

«الحجاب جميل عليك».

رحت أنظر إليها وكأني أحاول استيعاب جملتها فأضافت:

«عسى الله يهديك».

«ويهديك أنتِ».

أجبتها، فردت بقولها:

«أنا محجبة».

رمت عليَّ عبارتها، وكأنها تعيّرني بسفوري، فقذفت عليها:

«أنتِ خولة التي أعرف».

كهربت جملتي جلسة العزاء.. وكما لو أن خولة تأكدت من أنني سأفضح شيئًا من السفالة التي أعرف عنها، نهضت تهرب دون أن تنبس بكلمة. ولسان حالها يقول: الكلام سكاكين تصيبني في مقتل!

كل شيء بدا لي غريبًا برحيل أبي من البيت. فجأة صار كل ما في البيت باردًا وخاويًا يصرخ بحضور أبي، وغدا حضوره في غيابه أشدّ وطأة على قلبي من غيابه في حضوره!

في السنتين الأخيرتين، أخذ الحراك الشعبي العربي أبي في رحلة أمل، لكنه سرعان ما قذف به على ساحل الأشواك والخيبة. لاذ بوحدته وصمته وعزلته في مكتبته. كان لا يملّ الاتصال بأصدقائه في مصر وسوريا ولبنان ليطمئن عليهم. وكان بعد كل اتصال يزداد ألمًا وبعدًا عنا. ابتعد أكثر عني حين فاتحته أولًا بموضوع زواجي، وتاليًا بموضوع انتقالي للعيش في شقة لوحدي. لكنه ما إن رحل عن البيت، حتى صارت كل زاوية تأتي به، تنطق بذكرياتي معه،

وصار مروري بالمكتبة أو في صالة الجلوس اليومية أو مجيء أخواتي وأبنائهن لزيارتنا مساءات الخميس عذابًا لا أعرف كيف أتجرع مرارته!

صرتُ أشعر أن عينيه تطلان عليَّ من كل زاوية، وكثيرًا ما سمعت صوته الأحب ينادي عليَّ. يفزّ قلبي، أقف متجمدة في مكاني أتلفت حولي وكأني أستحضر روحه.. كنتُ كلما نظرت إلى لوحة وجدت عينيه الحبيبتين ترتسمان في وسطها، وكم ظل يخيفني إحساسي بوجوده إلى جانبي كلما دخلت المكتبة. يساير خطوي حتى لأكاد أصطدم به!

لا أدري لماذا خطف الموت أبي، أو تراه أبي نادى عليه بعد أن مرض باليأس من الأوضاع التي آلت إليها الانتفاضات الشعبية العربية! ولقد أثارت استغرابي سرعة عودة أمي لحياتها الاعتيادية، حتى أخواتي ظللن متأثرات لفترة، لكنهن ما لبثن أن عدن لأحاديثهن وانشغالاتهن بأزواجهن وعيالهن، وكأن دولاب الحياة الدائر لا يقف إلا عند محطات الأحياء تاركًا الموتى لصمت قبورهم.

وحدي افتقدت أبي، لكنه ظل يلاحقني يساير خطوي في كل زاوية في بيتنا. صرت أمشي وشعور خفي لا ينفك يلازمني بأني أسمع همسه ينادي عليَّ: كوثر! ولم أجد مهربًا إلا إليك يا مشاري.

شيئًا فشيئًا عدت للحديث معك، ولأول مرة جئت أنتَ لزيارتي في مكتبي، بعد انقضاء أيام العزاء بأبي. قلت لي:

«عظّم الله أجرك».

ولا أدري لماذا انخرطتُ ببكائي لحظة جاءت عيناي في عينيك، هل لأنني كنت محتاجة إليك، أو لأنني شعرتُ بأنك يمكن أن تعوضني شيئًا من فقد أبي؟ في المرة التالية، قلت لي:

«أتمنى زيارتك في كل وقت، لكني لا أودّ إزعاجك».

جملتك تلك حرّكت رغبتي ومشروعي في الخروج والسكن في شقة وحدي. فأنا كنت لحظة أخطو داخلة إلى البيت يأتي همس أبي إليَّ، وتروح عيناه تطلان عليَّ من كل ركن، حتى إنني وفي مرات كثيرة كدت أتعثر به وأسقط في مشيتي، ومرارًا اجتاحني السؤال: لماذا يلاحقني حسُّ أبي وتخفق روحه فوق رأسي؟ هل تحاول طردي من البيت، أم تحاول استبقائي؟

اتخذت قراري بخروجي، يوم عادت أختي ثريا إلى بيتنا مطلقة مع ولديها وحاملة على صدرها ابنتها الصغيرة. قدومها للإقامة في بيتنا أبعدني تمامًا عن جلساتي مع أمي، وجعلني أقبع في غرفتي طوال فترة وجودي في البيت. فثريا، ومنذ حادثة البحر، أصرّت على أن تتحاشى ما أمكنها الحديث معي، وقلما جمعنا مجلس واحد.

صارحتُ أمي:

«أود شراء شقة لي».

شلّت الدهشة لسانها، وأؤكد عزمي قلت لها:

«أخذت الأذن من أبي قبل موته».

«تكذبين! أبوك لم يكن موافقًا».

صرخت بحدّة بوجهي. تحيّرت بماذا أردّ عليها. فذكّرتها:

«أبي قال لي: بعد موتي أنت حرة».

رفضت أمي الفكرة، قالت:

«تزوجي واخرجي مع زوجك».

«أخرج وحدي».

أشعلت جملتي بعنادي جنون غضبها، فصرخت:

«عمك باقر يعرف كيف يؤدبك».

استفزتني جملتها، ودون تفكير قلت لها:

«الآن حسمت أمري».

صار انتقالي وعيشي في شقة وحدي يلوح لي بوصفه النجاة من الوجع: وجع ملاحقات وهمس روح أبي، ووجع صراخ وإهانات أمي التي لا تنتهي، ووجع وجودي في بيت واحد مع ثريا.. اقتنعت أن خروجي للسكن في شقة سيؤمن لي حياةً صافية؛ حياة تخصّني. لا أرمي بظلال ضيقي على أحد، ولا يثقل عليَّ أحدٌ بأي شيء. تاقت روحي أكثر لأن يكون لي مكان أتحرك وأعيش فيه بحريتي، دون أن ترصدني عين ويستوقفني صوت. وقلت أحدّث نفسي: لا شيء يجمعني بأمي وأخواتي. نحن أسرة وأهل بالاسم فقط! صور كاذبة أمام الناس ولا شيء آخر، وما ضرّي لو اختلفن معي أو قاطعنني؟ وأطلقُ سؤالي بوجعي صرخت:

«معقول، لا أستطيع اختيار سكني؟».

وبجنون أكثر علا صوتي:

«مهزلة!».

كلفت مشاري بالبحث عن شقة لي تطل على البحر، وتكون في بناية جديدة، وأكدت عليه:

«شقة يزور البحر والشمس جنباتها».

باهتمام أقرب إلى الفرح استقبل مشاري رغبتي، وخلال أقل من أسبوع بدأ باصطحابي معه لرؤية أكثر من شقة، وكان يتصرف أمام حراس البنايات كما لو أننا زوجان.

اخترت شقة جديدة وواسعة في منطقة «السالمية» تطل على شارع الخليج العربي، ويدخل البحر بزرقته متلألئًا إلى غرفة النوم وصالة الجلوس. غرفتان وصالة جلوس وطعام واسعة وغرفة للخادمة.. لم أدفع من رصيدي في البنك، حصتي التي ورثتها من مال أبي كانت كافية لشراء الشقة. ولم أكن مستعدة لدخول دوامة المخططات والمقاولات وبناء قطعة الأرض التي وهبني إياها.. ربما بعتها في المستقبل بعد أن يرتفع سعرها!

«اتفقنا».

قلت لمشاري قبل أن أبلغَ أمي بتوقيع عقد الشراء واستلام وثيقة التملك. وأول ما جاء على بالي لحظة استلمت الوثيقة فكرة إخراج أكبر عدد من لوحات بيت أبي الغالية، وجزء من كتب المكتبة،

وكأنـي بذلك أبرّ أبي وأبقي على وصل روحي به، وأحمل شـيئًا من روحه المحِبة للثقافة والفن معي إلى بيتي الجديد.

كـم أتمنى لو أنك حـيٌّ يا أبي لتأتي وترى شـقتي! أنا متأكدة من أن ذوقي سـيعجبك، وأنك ستحبها، وستجيء لزيارتي لنجلس معًا نتحـدث عـن أي رواية أو ديوان شـعر كمـا كنا نفعل فـي مكتبتك! وأظنك يا أبي ستحب مشاري متى ما عرفت لهفته عليَّ وتعلقه بي.

مؤحشة الحياة دون أحبّة يا أبي!

اليوم يوم زواجي، ومنذ فتّحت عينيَّ وأنا ممددة فوق سريري في غرفة نومي، وسط دوامة الذكريات والخوف!

حين تيقّنت أمي بعزمي على شراء شقة، هددتني بقولها:

«باقر سيتصرف معك».

جاء عمي إلى البيت، وسألني بصراخه:

«صحيح ما تقوله أمك؟».

تغابيت عن قصده، رحت أنظر إليه، فقال:

«تشترين شقة؟».

«أخذت الأذن من أبي».

«أبوك مات».

«هو باقٍ معي».

راح ينظر إليَّ وكأنه يستسخف أو يحتقر ما أتفوه به، فأوضحت له:

«إن كنت لا تصدق فسأقسم لك».

تكلم عمي معي محاولًا التأثير عليَّ:

«عيب بنت أسرة محترمة تترك بيت أهلها، وتسكن وحدها!».

كنت أستمع إليه:

«ماذا سيقول الناس عن وجودك في شقة؟».

ولأنه يعرف طبعي وحدة لساني، شعرت به يحاذر استفزازي، لكن أمي صرخت بي:

«لو كنت رجلًا لقتلتك».

وأنهض تاركة الجلسة قلت لها:

«لحكمة خلقك الله أنثى».

ودون مقدمات صرخ بي عمي:

«سنقتلك».

استغربت كلمته، رحت أنظر إليه، وأستوضح منه باستخفاف سألته:

«منْ أنتم؟».

«العائلة كلها».

جاءت كلمة طز على لساني لكني قلت له:

«سأنتقل إلى شقتي».

«أنتِ تتحدين الأسرة».

عادت نبرة التهديد لحسّه ونظرة عينه، فأوضحت:

«لا أقترف خطأً، سأتزوج وأعيش مع زوجي».

«السني الحقير!».

نطق كلمتـه بطريقة أغاظتني، فكرت أردّ بأي شـيء يحرق قلبه، ولم أجد غير أن أقول:

«أحبه».

وأصـدُّ عن مسبته المقذعة التي قذف بها في وجهي، انسـحبت إلى غرفتي، وصوت أمي يركض خلفي:

«ربنا يأخذك!».

أنـا خائفة يا مشـاري. لا أدري إلى أين سـيأخذني زواجي منك. منذ استيقظت وأنا أداري السؤال: ماذا لو تخليت عني بعد كل هذا؟

لحظـة انتقلت إلى شـقتي، داخلني شـعور غريب بأني اشـتريت الشقة التي أتمنى، فكيف أجيء برجل أعشق ليؤثث زواياها بأنفاسه وحضـوره ومحبته ورنـة ضحكتـه؟ مسَّ روحي شـيءٌ من أسـى، وهمست أحدّث قلبي: النقود أعجز من أن تأتي بالسعادة! صعد بي السـؤال: لماذا لم أعثر على مشـاري قبل زواجه؟ لكن ذلك الأسى سرعان ما تحول لضيق أسود يخنقني!

- ١٠ -

ربما لأني في الهُنا، وحدي في غرفة مكتبي المغلقة، ولا صوت يعكّـر عليَّ صفو خيالي. وربما لأني أحب غناء السـامري، يذكّرني بأمي وصديقاتها، يأخذني لمراهقتي في منطقة «شـرق» في «فريج: «القضيبي» ولاحقًا فريج «بورسلي». وقد يكون لسبب آخر، أمسك اللحـن بي لحظة بدأت كتابـة الرواية، تخيلتُ كوثـر تتمايل بطولها اللافـت، وهي ترتدي الثوب الزري، تتثنى بغصن جسـدها، ترقص بتؤدة رقصة السامري:

قلـت إلعبـي قالـت أنـا رياضية   أبـــا تعلـــم لعبـة الشـباني

تلعب لافحة بشـعرها الذهبي، تتحرك بخفة منْ يلعب الرياضة، تاركة لجسـدها أن يعطي إيقاعًا للزمن، ويضفي معنى على المكان، ويكاد يخمط عيون الرجال وأفئدتهم.

هُنا المجتمع يقمع المرأة في بوحها وتصريحها بحبها ووجعها؛ لـذا حين تجتمـع النسـاء في مجالـس سـمرهن ورقصهـن، يتركن لانفلات أجسادهن أن يصرخ بما جبُنت وخرست اللغة عن قوله.

بالرغـم مـن ألم الدسـك في ظهـري، والتنميل والخـدر اللذين يسـريان في سـاقي، فلقد واصلت جلسـتي خلف شاشة الكمبيوتر، لم أنهض فارًّا من الألـم، ماشيًا في دائرة غرفة مكتبي. أكملت طباعة الفصـل علـى عجـل. ولحظتها انفتح جـزء من بـاب مكتبي، وظهر وجه كوثر وقد تورّد بابتسام حلوٍ:

«مساء الخير».

خاطبتنـي عيناهـا، دافعـة بجسـدها من فرجـة البـاب، فنهضت لاسـتقبالها. خطت داخلة تلبس بنطلونًا قطنيًّا بلون كموني وقميصًا أبيض بكم قصير، مشـت نحوي تصافحنـي وتقبلني، فتعيدني لأيام ومسـاءات كثيرة كنت أمرُّ فيها على أبيها لنلتقي في المكتبة، أجدها جالسة معه فتسرع ناهضة تردد:

«عمو طالب».

آخذها إليَّ أقبّلها وأدغدغها بقولي:

«صديقتنا القارئة الصغيرة».

على أثر دخولها، دلف مشاري بدشداشته وغترته وعقاله:

«مساء الخير».

نطـق جملته بنبرة أقرب إلى التحفظ. لفتتني وسـامته، وأصافحه قلت:

«أهلًا وسهلًا».

جـال بنظراته فـي زوايـا الغرفة، وكأنـه تفاجأ بصغرها وبسـاطة عالمها:

«تفضلا».

جلسا فسألتهما:

«قهوة أم شاي؟».

قرأتُ انطباعًا أوحى إليَّ بعدم ارتياحٍ مختبئ خلف نظرة مشاري وعلى وجهه.

«هذا حبيبي».

خاطبتني كوثر، وأكملت:

«وزوجي قريبا».

ضحكت ضحكتها الصافية التي أحب قائلة:

«قريبًا جدًّا».

التفتُّ أنظر لمشاري فبادرني:

«كوثر تحبك كثيرًا وتحترمك».

«وأنا أحبها كابنتي».

«كان لابدَّ أن أعرّفك على مشاري».

عادت كوثر توجّه كلامها إليَّ:

«أنتَ أقرب وأحب أصدقاء بابا».

وتحدّث مشاري قالت مبتسمة:

«يجب أن تقرأ روايات عمو طالب».

هزَّ مشاري رأسه مؤيدًا:

«طبعًا».

دار ببالـي أسـأل مشـاري إن كان قـد أنهـى خلافـه مـع زوجته، أو انفصـل عنهـا، فأنـا لا أسـتطيع تصـور رجـلٍ يتـزوج فتـاة بزعم أنـه غارق في عشـقها، بينما هو يعيش ويعاشـر امـرأة أخرى. لكني ألجمت نفسي.

بـدا واضحًـا أن كوثر مغرمـة بحبيبها.. حدثني قلبي أن مشـاري مـا زال متورطًـا فـي توزعـه بيـن ارتباطـه بزوجتـه وأطفالـه وبيـن ولعه بكوثر.

«جئت أطلب يد كوثر منك».

رمـى جملتـه عليَّ بجـرسٍ غريب. وكمـا لو أنه رشّـني بدلو ماء بارد. جمدت في مكاني لا أعرف بماذا أردّ عليه. أنا الذي استنطقت كوثر بخبايا حياتها.

بقيـت صامتًـا أحوّل نظـرة عينـيَّ بينه وبيـن كوثر. فجـأة تمطى صمتُ غرفتي الذي أعرف، استيقظ ليحطّ معنا.

«اطلب كوثر من نفسها».

قلتُ له كما لو أني أهرب من المواجهة، والتفتُّ أسأل كوثر:

«هل أخبرتِ أحدًا من أهلك؟».

أسرعت تجيب:

«يعرفون ولا يعرفون».

«ليخطبك مشاري منهم».

طافت ظلال ضيق بوجه مشاري، وأسرع الحرج إلى وجه كوثر، قالت بنبرة مترددة:

«أنت تعرف موقفهم».

«ومشاري؟».

سألتها، فانبرى هو قائلًا:

«أعرف.. كوثر صارحتني».

شعرت أنا بضرورة أن أوضّح موقفي، فخاطبته:

«أنا مع علاقة الحب والزواج، لكن أتمنى أن تكون كوثر المرأة الوحيدة في حياتك».

«أنا أحبها».

خاطبني بلهجة محايدة وباردة، هزّت شيئًا من تحسسٍ في خاطري. فسكتُ لثوانٍ قبل أن أسأله:

«ماذا عن زوجتك؟».

فجأة تغيّرت نظرة عينيه، وأمسك الهلع بوجه كوثر. لكني زدت تصميمًا على سماع ردّه:

«لا علاقة لزوجتي بارتباطنا».

أجابني بضيق ونفور واضحين. استوقفتني جملته. استغربت وقاحته بصلفه. هو يدافع عن زوجته وعلاقته بها، بينما يأتي طالبًا الزواج من امرأة ثانية! رددت عليه بنبرة قاطعة:

«أنا لا أزوج ابنتي لرجل متزوج».

انخطف لون وجه كوثر. التفتت إليه وكأنها تحثّه على التدخل لقول شيء ما. ويجاريها، بعث وضيق واضح يغشى نبرته:

«سأرتب الأمور».

تجاهلتُ جملته، خاطبتُ كوثر:

«لو كان أبوكِ حيًّا كيف سيكون موقفه؟».

والتفتُّ إليه قائلًا:

«لا أعلم ما بينك وبين زوجتك. وو حدك تقرر مسار حياتك».

عبث الانزعاج بوجهه. جاءت إليَّ صوره الرسمية في الجرائد. بينما محت الخيبة تورد وجنتي كوثر. عادت تكلمني مبررة:

«سيطلّقها».

فضّلت عدم الرد على كلمتها. وقلت منهيًا اللقاء:

«أتمنى الخير لكما».

مسّني شعورٌ خاطف بأني مذنب، وأنني أشارك في الإساءة لامرأة لا أعرفها، قد أدفع برجل لتطليق زوجته، وهدم استقرار

أسـرته وتشـتيت أطفالـه. دار ببالـي: إذا كانـت كوثـر تحبـه فعليها أن تسـتخلصه لنفسـها، لكني لن أسـامح نفسـي إن سـاهمت بهدم سقف أسرة.

وخـزتْ قلبـي صـورة أمي وهي تشـكو لي بمـرارة حرقـة قلبها وإحساسـها بالضيـاع يـوم غافلهـا زوجهـا الأول وتـزوج عليهـا.. يرحمك الله يا أمي، كم مرة قصصتِ عليَّ حكايتك الموجعة:

«نفرتُ من زوجي الأول يوم تزوج عليَّ».

تترطب عينا أمي الحبيبتان وحسّها بالدمع:

«حرق قلبي بحرماني من أطفالي، لكني لم أعد إليه».

حملت أمي صرة ملابسها تركت بيت زوجها، وعادت مكسورة الخاطـر إلـى بيـت أبيها، وتصميـم عجيب يمـلأ قلبها، هـي المرأة البسيطة والمسالمة:

«لن أعيش مع رجلٍ تزوج عليَّ».

حاول جدي عبثًا ثنيها عن قرارها، ضربها وهددها بالقتل، لكنها أصـرّت علـى موقفها وهجـر زوجها بالرغـم من عشـقها له. ظلت متشبثة بكرامتها، تذرف الدمع على فراق أطفالها الذي يكوي قلبها. طلّقها زوجها بعد أن أهانته بهجرانه وترك بيته. بقيت سـبع سـنوات حبيسـة بيت أبيها تجتـر آلامها وتطفئ نـار قلبها بدمعهـا الصامت، لحين تزوجت من أبي.

ضجَّ الكدر بقلبي ولوّح الضيق وجهي. نظرتْ إليَّ كوثر بينما يجلس مشاري إلى جانبها، ولأنها تعرفني فلقد فهمت مقصدي بإنهاء اللقاء، نهضت قائلة:

«نتركك للكتابة».

وخاطبني مشاري بنبرة لم أفك شفرتها:

«شكرًا على المقابلة».

«أهلًا وسهلًا».

رددت عليه.. وكما قبّلتني كوثر في دخولها عادت تقبلني عند خروجها، لكنني شعرت وكأن أوراقًا يابسة تتمزق في صدري وصدرها. وددت لو أقول لها: ورطتك كبيرة!

شيئًا فشيئًا عاد الهدوء يتخلل هُناي في غرفة مكتبي، وعادت قرصات الدسك في ظهري، وتنميل ساقي، وما لبثت الوحدة أن هرعت إليَّ تمسد ضيقي. وكما لو أنها أرادت أن تعيدني لأجواء الكتابة، راحت تدندن باللحن:

قلتْ اوقفي لي وإرفعي البوشيّة

وما لبثتُ أن عدتُ إلى الرواية.

-١١-

«حياتي الجديدة معك»

باكتمال عبارتكِ سيبدأ مشوار زواجكِ اليوم، وستنتقلين لعيشة مختلفة.

ما زلتِ ممددة فوق سرير نومكِ في غرفتكِ الهادئة. ربما كان هذا هو آخر صباح تكونين فيه لوحدك. لا تدرين كيف ستكون حياتكِ مع مشاري، وكيف سيوزع نفسه بينك وبين زوجته لحين انفصاله عنها، وأين سيلتقي بأطفاله؟ لا تتصوريه يدعوهم لزيارته في شقتكِ! مؤكد أنه سيلتقي بهم في بيت أبيه أو ربما في مقهى أو مطعم في أحد الأسواق.

كأن الضيق يرمي بعباءته السوداء على وجهك.. إلى أين ستأخذكِ خطوتكِ بزواجك؟ ومخيف يهزكِ السؤال: هل الزواج تملّك للآخر؟ تحلمين بأن يكون مشاري خالصًا لك. يستيقظ في فراشك، معًا تتناولان القهوة، وتختارين له ثيابه، ومن مبخرٍ واحد تتبخران، قبل أن تقبّليه خارجًا إلى عمله.

يعذب روحكِ أن يصير الوصول إلى أبسط الأشياء منالًا صعبًا!

لا تتصوري كيف ستحتضنك هذه الشقة وزوجكِ، ومنْ سيأتي لزيارتكما. عمو طالب وزوجته شروق سيصطحبان الصغيرة فادية، ويأتون لزيارتكما ومنى وزوجها.. أخواتك، هل ستأتي إحداهن لزيارتك في شقتك، كما كنتِ تفعلين بزياراتك لبيوتهن؟

تحزن الأمكنة حين يتكدّر خاطر أهلها. لو جاءت إحدى أخواتك فستفرفر روحك فرحًا بمقدمها. سترى لوحات بيت الدسمة على جدران شقتك، وستقولين لها: أنا وبابا نشترك في حب الفن التشكيلي.

تشعرين كما لو أن البحر ينادي عليك، وتلوح لك الحياة مغرية خارج أسئلة خوفك.

نتف قطن الذكريات، تتطاير من حولك لتملأ جو غرفتك، وكأنك تستحضرينها لنفضها عن قلبك، وتودعينها وداعك الأخير.

لاتدرين إلى أين سيأخذك قرارك اليوم، وما الذي ينتظرك في حضن عيشة الزواج.. أرقام الساعة الحمراء تظهر: السابعة إلا ربعًا، صار يجب أن تنهضي.

-١٢-

ما كنتُ أظن أن حياتي كلها ستتغير حين أخرج للسكن في شقة لوحدي! كأني صرتُ كوثر مختلفة عن تلك التي تربت في بيت الدسمة. ما كنتُ أتصوّر كم أنا متعلقة ببيت أبي وأهلي! فطوال الشهرين الأولين، وما إن ينثر الليل رماد ظلمته على الأشياء، يلبسها ثوبه الأسود، حتى أشعر أن قلبي منقبض، وأن البكاء ينفخ في رقبتي. أحاول أن ألهّي نفسي بقراءة كتاب أو متابعة فيلم تلفزيوني، لكني كمن يخدع نفسه، ما تلبث أن تلتم عليَّ أتربة الحزن، تعفّر روحي بسخامها، فأهبّ من جلستي أدخل غرفتي وأبدأ بالبكاء. وكم سألت نفسي: ما الذي يُبكيني؟

في إحدى المرات، اتصلت بعمو طالب، ولم أنتبه أن الساعة قد قاربت الحادية عشرة ليلًا، ردَّ عليَّ بصوت يبدو أقرب للنوم:

«ألو».

لا أدري كيف عجزت عن الرد عليه، خنقني بكائي، راح ينادي عليَّ:

«كوثر.. يا كوثر..».

ولأنه شعر بأني بحاجته، قال لي:

«أنا قادم».

جاء إلى شقتي مع شروق. قابلتهما بعينيَّ الباكيتين، وما إن جلسا حتى سألني:

«ماذا حصل؟».

بقيت صامتة لا أعرف بماذا أردّ.. أخذتني شروق إلى غرفة نومي، وما إن احتضنتني حتى فضت ببكائي كالطفل. وحين عدنا إلى صالة الجلوس تكلمتُ مخاطبة عمو طالب:

«لا أعرف ماذا أريد».

وبعد ثوانٍ أضفت:

«لا أعرف كيف أنهي قصتي مع مشاري».

بقيا معي حتى منتصف الليل، أخرجت أمامهما كل هواجسي ومخاوفي، وقد اختلط الكلام بالبكاء. ظل وجه عمو طالب واجمًا بتكشيرة لم أستطع تفسيرها، بينما شاركتني شروق البكاء، وقبل خروجهما قال لي:

«أنا وشروق معك».

«حبيبتي اتصلي بي في أي وقت، أو تعالي عندنا».

أوصتني شروق وقد بلل دمع طيبتها عينيها.

«القرار صعب، ولن يكون الثمن هيّنًا».

أمسك عمو طالب بوجهي بين كفيه، كما تعوّد أن يفعل معي في بيت أبي كي يقبلني، لكنه نظر في عينيَّ قائلًا:

«أنت قوية وأنا معك».

قبّلني واحتضنتني شروق، ولحظة أغلقت الباب خلفهما شعرت أنني بحاجة للنوم.

فرحتُ حين عثرت على بغيتي في منطقة «السالمية» على شارع الكورنيش. سجّلت وثيقة تملّك الشقة باسمي في وزارة العدل. داخلني شعور أن مشاري فرح أكثر مني معتقدًا بتوفر مكان للقائنا، والبدء بمرحلة جديدة في علاقتنا.

لم أخبر أمي ولا أخواتي، جاءت على بالي فكرة التأثيث، فقلت له بشيء من سرور:

«معًا نختار الأثاث».

سكتٌّ لبرهة قبل أن يُجيب:

«اختاري ما تشائين وسيعجبني».

آلمتني جملته، أنا التي حلمت ببيت يجمعني بمن أحب.. قدّرت أنه يخشى الظهور معي، ودار ببالي أن المرأة حين تكون على علاقة برجل مرتبط بامرأة أخرى، تكون حساسة تخدش روحها أي كلمة تصدر عنه. بلعت ضيقي، فأضاف:

«سأدفع جميع تكلفة التأثيث».

ضايقتني جملته الجديدة، فهو يظن أن نقوده ستُطفئ نار عتبي عليه، وستكون بديلًا كافيًا لتحلّ محله. نظرت إليه وقد طفح الضيق بي، قلت له:

«أحيانًا أكرهك».

وترددت أقول: أحتقرك. ولكي أكون أكثر وضوحًا وإمعانًا في رفض عرضه قلت له بحدة:

«لن أقبل منك فلسًا واحدًا للأثاث».

كيف لنا أن نعثر بأشخاص نحبهم، فيأتوا كما نشتهي؟ بعض مواقف أحبتنا تخلّف جراحًا عميقة في القلب وتتركنا نهبًا للألم. وكم دار بقلبي السؤال: ما الذي يجبرني على البقاء مع الآخر واحتمال خيباته وقسوته وربما تفاهته، أم إنه الحب قدر أعمى يأخذ بأيدينا للسير على درب المواجع؟

بدأتُ أفكر بتأثيث شقتي، وأول ما جاء على بالي نقل بعض كتب مكتبة أبي لتكون بقربي. فصرتُ كل مساء أدخل المكتبة فتسرع روح أبي تأتي لتحوم فوق رأسي. تشاركني في جميع أفكاري وخطواتي. أقاوم بكائي فتتبلل عيناي بدمعها صمتًا بينما أنا أتنقل بين الكتب والروايات والدواوين الشعرية، تطير من حولي لحظات عمرٍ حلوٍ قضيته في حضن أبي بصحبة عوالمها. أحرص على ترتيب الكتب في أكياس، وبهدوء أنادي على خادمتي لنقلها إلى

سيارتي.. كنت أعلم أنه لا أحد في بيتنا له علاقة بالكتب أو المكتبة، وكان يؤلمني إحساسي بأني سارقة، أسطو على كتب أبي العزيزة وجريمتي الكبرى أنني مارست حقي في اختيار مكانٍ خاصٍّ أعيش فيه. فركبت سفينة معيشة السر، ورحلة التحدي والوجع.

صديقتي منى شاركتني تأثيث شقتي. اتسعت عيناها وهي تبحلق في وجهي يوم أخبرتها بأني اشتريت شقة لأعيش فيها وحدي، بعثت تسألني غير مصدقة:

«ماذا؟!».

«شقة في منطقة السالمية».

قدّرتُ تفاجأها فقلت أهوّن عليها:

«ما عدت احتمل مضايقات أهلي».

شرحت لها مناكفات أمي وصدود ثريا وصراخ عمي باقر. وقلت لها:

«عمري تعدى الثلاثين!».

حين هدأت، وكعادتها الحبيبة، نهضت من مقعدها جاءت لتقبلني:

«مبروك».

صعدت ابتسامة صافية لوجهها:

«أنا حاضرة لأي مساعدة».

شـيءٌ مـن أسـى ظـل يمسـك بخاطـري طـوال فتـرة التأثيـث، واتخذت قراري: لن أستقبل مشاري في شقتي إلا بعد أن أنهي كل شيء. رجاني مرارًا، وبهدوء قلت له:

«لن تزورني الآن».

تأسـف عمـا بَـدَرَ منه، وقـال إنه مشـغول لا يسـتطيع مصاحبتي لشـراء الأثاث، وإن الرجال في أغلبهم لا يطيقون التسـوق، ومرارًا كررت عليه:

«أتدبر أمري».

بعـد انتهائي من التأثيث وملء مكتبتي بالكتب التي أحب، بقيت علـيَّ مهمة شـاقة تتمثل في أخذ اللوحات التشـكيلية مـن بيت أبي ونقلها إلى شـقتي. أمضيت سـاعات أتأمل لوحات الفنانين العرب الأهـم؛ لأقرر أيها أحمل معي، ولأول مـرة أنتبه إلى تعلّق قلبي بها، وأن كل لوحـة تمثـل مرحلـة مـن عمـري! وحين اسـتقر رأيي على اللوحـات الأقـرب إلى قلبي وربما الأغلى قيمـة. وقفت أمام لوحة الفنـان الكويتـي أيوب حسـين التي اخترتهـا أنا وأبي، فهـي اللوحة الوحيدة التي تحبها أمي. ما كان من الممكن أن أتركها.. لذا اخترت يومًا يكون بيتنا خاليًا بذهاب أمي إلى الشاليه، وأحضرت سيارة نقل وسـاعدتني منـى لأقلـع باللوحات الأحـب، أصل بها إلى شـقتي، وأعـود مسـرعة أنـا ومنـى لنسـتخرج من المخـزن لوحـات أخرى أضعهـا مكان تلك التي أخـذت.. كنتُ متأكـدة أن أحدًا لن يلاحظ الفـرق، وبقيت مسـتعدة للرد علـى أمي لو تكلمت فـي الموضوع،

لكنهـا وسـط انشـغالها بشـكوى أختـي ثريا ومشـاكلها مـع طليقها وضجة أبنائها، لم تنتبه لشيء.

طـوال الفتـرة الماضيـة، ومـع كل خطـوة كنتُ أردد مع نفسـي: مسكينة هي المرأة!

بعـد مـوت أبي ما عاد مـن رجلٍ فـي حياتي إلا مشـاري. فليس لـي من إخوة ولا علاقة لي بعمي ولا أولاده. مسـكينة المرأة تهلك روحهـا حين تصرّ على نيل حقها ومواجهة مجتمع ذكوري يقمعها، كأنها تنشد إنجاز شـيءٍ من المستحيل. بخروجها على عادات وتقاليد اجتماعية بالية.

بعد أن انتهيت من تأثيث الشـقة وتعليق الستائر وترتيب المكتبة واختيـار أماكـن اللوحـات، بـدأ شـيءٌ من الألفـة ينعقد بينـي وبين المكان، بدأت أجيء إلى الشقة التي اخترت وأحببت، أردد بصوت عالٍ وكأني أحاول أن أقنع نفسي:

«أنا ذاهبة إلى بيتي».

أتصل بمنى أخبرها:

«في طريقي إلى شقتي».

ومضة خوف مسَّت قلبي حين حانت لحظة المواجهة. برز السؤال لي: هل أخبر أمي وأعطيها العنوان لأثبت لها ولعمي وأخواتي أنني لا أملـك مـا أخفي عنهـم، وأنني على اسـتعداد لاسـتقبالهم في أي لحظة، وأنني اخترت الانتقال إلى شـقتي لأنني أودّ العيش مسـتقلة

في عالمي لوحدي. دارت الأسئلة ببالي، وفكرت بأن المواجهة لن تفيد بشيء، وربما كان من الأجدى لو انسحب بهدوء لأنتظر ما سيأتي. لكني خشيت أن يقولوا: هربت لأنها خاطئة لا تقوى على المواجهة، سرّبت لأمي في أحد المساءات بينما كنا نجلس وحدنا:

«اشتريت الشقة».

اشتعلت نظرتها غضبًا وكأنها كانت تنتظر هذه الحرب. وكما لو أنها أرادت التأكد سألتني:

«شقة؟».

«نعم».

قلت كلمتي بهدوء، وللحظة بدت هي أعجز من الرد، فما كان منها إلا أن اتصلت بأختي الكبرى جميلة وطلبت منها الحضور فورًا.

مسرعات جئن أخواتي كلهن: جميلة وفاطمة وزينب، ووحدها ثريا ظلت بعيدة مع أنها كانت موجودة في البيت. لا أدري لماذا تصورتْ جميلة في البدء أنني أمزح معهن، وأنني لا يمكن أن أقدم على خطوة مجنونة كهذه، وتغيرت نبرة صوتها وهي تسألني:

«لماذا تشترين شقة وتسكنين وحدك؟».

بهدوء رددت عليها:

«لأني أريد ذلك».

رحت أنظر إليها، بعثت تقول:

«منْ يضايقك هنا؟».

بـدا لي سـؤالها غبيًّا وأنانيًّا، وقد نسـيت أنها تسـكن بيتًا يخصّها وزوجها! اهتزَّ الانفعال في نبرة صوتها وهي تبيّن لي أن شرائي شقة وخروجي للسكن وحدي سيكون فضيحة، وسيؤثر على علاقتهن، هـي وأخواتي، بأزواجهن، وأن أي واحـدة منهن لا تمتلك جرأة أن تخبـر زوجهـا قائلة: أختي تسـكن وحدها في شـقة، وحتى عيالهن كيف يمكن لهم أن يتفهموا ويتقبلوا الأمر، وأن الكويت بلد صغير، سـرعان ما ينتشـر الخبر فيه، ويتحول إلى أقاويل شـريرة. وتدخلت فاطمة، ظهر تأثر مفاجئ على حسّها وهي تطلب مني:

«أرجوك لا تخربي حياتنا».

ودون تفكير طفر سؤالي بوجهها:

«وماذا عن حياتي؟».

ران صمت مكهرب على جلسـتنا. أسـرعت إليَّ سنوات طويلة عملت فيها مربية لأطفالهن، فأي واحدة منهن تودّ السفر مع زوجها فـي إجازة متعة واسـتجمام، ترمي بعيالها علـيَّ. لأني غير متزوجة، وأنـا أحب الأطفال، وأنا خير مـن يرعاهم ويلبي طلباتهم.. صحيح أن روحـي كانت تهنأ بصحبة الأطفـال، وصحيح أنهم كانوا يلوّنون لحظـات يومـي، وصحيح أننـي متعلقة بأكثـر من طفـل فيهم، وأن غرفتي مليئة بصوري معهم، وصحيح وصحيح. لكن السـؤال نفسه ظل يلكزني كنصل خنجر: متى ألعب مع أولادي، ومتى يتحول هذا النداء المحبب:

«خالتي»؟

ليكون ماما؟

كنتُ كلما سافرت إحدى أخواتي وتركت عيالها معي لأيام، انقلبت تلك الأيام لتكون لحظات لعب ومرح وضجيج لا يهدأ. ولحظة أحتضنهم لأودعهم، أقبّلهم وصدري يجيش بالألم. أظل لأيام أعيش كآبة لا أعرف كيف أتخلص منها.

مشاري، اليوم سنكتب كتابنا، صحيح أنني متخوّفة لا أدري إلى أين ستبحر سفينة زواجي معك، لكني، ودون أن أخبرك، سأحمل بطفل شرعي منك، وسأسعد بأن أعيش معه بقية عمري!

مساء جئن أخواتي لمناقشتي بأمر خروجي إلى شقتي، خاطبتني أختي فاطمة:

«سيغضب عمي باقر، وأنت تعرفين تهور مهدي ولده».

راحت تتبين أثر جملتها على وجهي بتهديدها المبطن، فقلت بهدوء:

«عمي يعلم بأمر الشقة».

«سأتبرأ منك».

صرخت بي أمي وكأنها تستخدم ورقتها الأخيرة، وأكملت بحرقة وقد تكسرت نبرة صوتها:

«إذا خرجتِ من هذا البيت فلن تدخليه».

أمي وأخواتي يتبرأن مني لأني اخترت طريق حياتي، أقدمت على الاستقلال بشقة لوحدي. حدّثت نفسي والأسى يغشى صدري، بينما أنا أجلس بينهن. تمنيت لو أصارحهن: أنتن أنانيات تهمّكن حياتكن ولا تفكرن بحياتي.. سرعان ما تحول هذا الأسى لضيق أسود يملأ روحي وأنا أنظر لأمي زوجة الرجل الليبرالي المثقف الذي أمضى حياته في قراءة الفكر والأدب وصداقة الكتّاب. وكما لو أن حجرًا يشج وجهي صعدت إليَّ الفكرة: «هو لم يكن موافقًا على زواجي، ولا على خروجي من البيت!».

كرهت وجودي بينهن، فنهضت أترك مجلسهن قائلة:

«سأفرح باستقبال أي منكن في شقتي».

لحقني صوت أمي:

«سأبقى أدعو عليك».

«لا يهم».

رميت في وجهها لأغيظها، وأخذت طريقي إلى غرفتي، ولا أدري لماذا شعرتُ وكأن درجات السلم لا تريد أن تنتهي.. أبي الرجل المتنوّر رفض زواجي، ورفض خروجي للعيش وحدي. أمي وأخواتي يتبرأن مني، وعمي يهددني، ومشاري مصرّ على التمسك بزوجته، ومنى صديقتي حين عرفت سألتني ودهشتها:

«ماذا سيقول الناس عنك؟».

حين دخلت غرفتي رميت نفسي على سريري؛ فتمنيت لو أن السقف يطبق عليَّ ويغيبني عن كل شيء.

معذورة لو خفت أنا! ومعذورة لو جاءت الأسئلة لتفحّ في وجهي.. زواجي من حبيبي مشاري أفضل بكثير من بقائي معلقة في خيوط الهمز واللمز والأسى!

ليلة خلافي مع أمي وأخواتي، حين أويت إلى فراشي سقطت في حفرة نوم مظلمة. رأيتُ نفسي أسير على أرض حَجَرِيّة وعرة، وأنني أحاول بصعوبة حفظ توازني، وكنت أتلفت مستغربة وجودي في مكانٍ قفر لا بشر فيه، وأتساءل: أي الاتجاهات أسلك؟ وبينما أنا أتعثر في مشيي رأيت أبي جالسًا بثوب مزركش زاهي الألوان على كرسي من كراسي مكتبته ممسكًا بكتاب بغلاف ملون. ناديت عليه لكنه تجاهل ندائي وكأنه لا يسمعني. جعلت أسرع وأتعثر وأسقط ويشج الحجر راحة يدي وركبتي وأشعر بلزوجة الدم تبللني، بينما هو جالس كأهدأ ما يكون في مكانه. وحين وصلت إليه مدَّ لي الكتاب ليختفي كما ظهر، وحين تصفحت الكتاب وجدته بصفحات بيضاء فارغة دون أي كلمة أو علامة.

في اليوم التالي كان عليَّ أن أقرر موعد انتقالي إلى شقتي، فلقد نقلت جميع أوراقي وأغراض غرفتي، وكان مشاري قد أتعبني بملاحقته:

«متى؟».

عدتُ من عملي، وكالعادة جلستُ مع أمي للغداء، لكنها تحاشت أن ترفع عينيها إلى وجهي. شعرت أنها لا تأكل وأنها كانت مكهربة بانتظاري لتعرف إن كنتُ ما زلت مصممة على

انتقالي. لا أعرف كيف بلعت لقماتي، لأصعد مسرعة إلى غرفتي.. سأترك بيت أبي دون رجعة.. ثقلٌ ما نزل على قلبي وروحي. رحت أنظر إلى حوائط غرفتي فأرى عليها شريط عمري.. في غرفتي في بيت أبي في منطقة الدسمة أمضيت أكثر من ثلاثين سنة من عمري. في تلك الغرفة، عشتُ سنوات حياتي منذ كنت طفلة تدرس في المدرسة وحتى تخرجي في الجامعة وتوظفي في البنك.. كان أبي يأتي إلى سريري صباحًا، يردد عليَّ بحسّه الأحب:

«كوثري».

في غرفتي قرأت أجمل الروايات والقصص، وشاهدت على شاشة التلفزيون الأفلام التي أحب، وأعدت مشاهدتها. وكنت أجيء بأبناء أخواتي ليناموا معي في فراشي، ونلعب معًا، ونملأ الغرفة بصراخنا وصراعنا وضحكاتنا. بين جدران غرفتي تعرفت على مشاري وأحببته وحلمت به.. كطفلة صغيرة اقتربت من الجدار لأضع خدي عليه، ونظرت إلى المرآة قائلة: «مع السلامة». وكما لو أنني أودعه، فتحت باب غرفة الحمام لألقي نظرتي الأخيرة عليه. شيءٌ ما أمسك بقلبي فسالت دموعي، وشعرت أنني لا أقوى على ترك غرفتي، وكأقسى ما يكون صعد بي السؤال: من أين يأتي تعلقنا بالمكان؟ ما السر الذي يربطنا إلى مكان بعينه؟ وكيف تتحول جدران صماء إلى هاجس مُلح لا نقوى على البعد عنه؟ وأنتزع نفسي من غرفتي، قلت وكأني أبرر خروجي منها: أحبك!

حملت حقيبة يدي، وناديت على خادمتي، ونزلت لأجد أمي جالسة في مكانها:

«أنا ذاهبة».

قلت بصوت دامع. وكنتُ أخشى أن تنهض تقبلني فأنكسر عن قراري. لكنها ظلت بصمتها المتفجر، فمشيت أنا صوب الباب ليودعني صوتها:

«إلى جهنم».

تحاشيت الرد عليها، ودون أن أشعر انفجرت ببكائي وعويلي لحظة جلست خلف مقود سيارتي، وكأني أبكي وداعي لعمرٍ بأكمله، وبيتٍ طالما عشقت.

هذا ما يُخيفني يا مشاري، أنا بعت أهلي وغيّرت حياتي من أجلك، فهل ستبيع وتغيّر حياتك مثلي، أم إن ساقيك غاطستان في طين زواجك وحساباتك الذكورية ولن تستطيع تخليصهما؟

في الأسبوع الأخير أطلّت نظرة غريبة في عينيك، حين سألتك عن سبب تغيّرك قلت بحسٍّ آفل:

«ليس سهلًا».

ولأني رحت أنظر إليك، أكملت:

«أفكر بأطفالي».

آه لو تدري ماذا فعلت بي جملتك تلك؟ لقد فكرت بالتخلي عنك، وإنهاء كل شيء بيننا. لكنك أنتَ منْ صمم على السير في درب العلاقة، ومطاوعتي بالزواج.

يوم ودعت بيت أبي، وجئت بصحبة خادمتي إلى الشقة، ولحظة دخلت أحسستُ وكأني أدخل المكان للمرة الأولى. بدت صامتة وباردة. وبالرغم من وجود لوحات أبي تزين الجدران، خُيل إليَّ وكأن الجدران عارية. وحين رمى الظلام بعباءته على وجه البحر، استشعرت وحشة غريبة، وتهيّبت النوم وحدي، حتى إنني فكرت أطلب من خادمتي أن تأتي بفراشها للنوم معي في غرفتي.

كنتُ جالسة أحاول لملمة روحي من ضياعي وحزني، فاتصل مشاري صائحًا بصوت نشوته:

«أخيرًا».

استغربت تتبعه لي، وتصنعت تجاهل قصده، فقد كنت أنوي إخفاء خبر انتقالي إلى شقتي عنه:

«مبروك الانتقال».

قال وفاجأني سؤاله:

«أنتِ في الشقة؟».

سكتُّ لثوانٍ لا أعرف بماذا أردّ. لسبب كرهت فكرة أن يأتي لزيارتي. وأنفجر بوجهه صرخت:

«أرجوك لا تتصل بي».

أغلقت تلفوني لأغرق بنوبة بكاء نمت على أثرها في مكاني على الصوفا.

لمـاذا تأتـي كل هـذه الذكريـات الموجعـة عليَّ في صبـاح يوم زواجـي؟ اليـوم أبلـغ خـط النهاية. أنـا من اختـار الدخـول في هذا السباق، ولقد كان سباقًا مُهلكًا وداميًا للروح، عمو طالب قال لي:

«أنتِ قوية».

لكن متى كان العناد بلا ثمن؟ ومتى كان المجتمع يتسامح مع من يرمي حجرًا فيحرك مياة بركته الراكدة، ويخرج على عاداته البالية؟

اليوم، ربما بعد أقل من سـاعتين سـيمرّ مشـاري بي ونذهب إلى قصر العـدل لعقد قراننا، رتبت أنا أمر الشـاهدين، ولأنني لم أتصل بأمي أو أخواتي منذ تركت بيت أبي، أفكر اليوم، وحال خروجنا من قصـر العدل، أن أكلم أختـي جميلة لأخبرها عـن زواجي، وكذلك اتصل بعمو طالب وشروق وبمنى وعمتي ألطاف.

انتقالـي إلى هُنا أدخلني في حالة نفسـية جديدة؛ ربما لأنني كنتُ محتاجة لفترة كي أتعود على العيش منفردة في مكان يخصّني؛ وربما لأني شـعرت بأنني ورقة يابسة تحملها الريح في سماء مغبرة؛ وربما لأن الوصول إلى مرادٍ صعبٍ يخلق سؤاله الأصعب: وماذا بعد؟

منـى كانـت الوحيـدة التي ظلـت تأتـي لزيارتي بانتظـام، وعمو طالب وشروق والصغيرة فادية جاؤوا لزيارتي حاملين هدية، لوحة للفنان «عادل السـيوي»، ووحدها عمتـي ألطاف جاءت مرة واحدة لزيارتي بناءً على رجائي وإلحاحي المتكررين، وأكّدت عليَّ مرارًا:

«لا أريد لأحد أن يعرف».

عمتي كانت أول إنسان من عائلتي يطرق باب شقتي، ولأنها كانت قد تأخرت في ذلك المساء عن موعد المجيء، فإنني لحظة فتحت لها الباب والتقطت عيناي صفحة وجهها ودون أن أشعر، رميت نفسي بحضنها ورحت أنتفض بسعادتي ودموع بكائي، وكأني أعانق أبي.

كنتُ قد أعددت وليمة لاستقبالها، وكان بودّي أن تبقى معي أطول مدة ممكنة، لكنها لم تمكث معي أكثر من نصف ساعة. شعرت بها مهتمة لسماع شيءٍ عن علاقتي بمشاري، لكني كنت أريدها أن تطمئن بعد أن تراني في وضعي الجديد، ولكي أوضح الأمر لها قلت:

«سكني وحدي لا علاقة له بزواجي».

ولأن جملتي ظلت معلقة بيننا. شرحتُ لها رغبتي في أن أستقل بحياتي وعيشي في بيتٍ يخصّني ليمرَّ يومي بهدوء وسلام، وأنني ما عدت أطيق العيش في مكان واحد مع أم تهينني وأخت تكرهني وتتحاشى النظر إليَّ. وأنني سأسعد باستقبال أي فرد من عائلتي، فأنا لا أخفي شيئًا عن أحد.. أحسست وكأنها تعاطفت معي، لكنها قالت دون مقدمات:

«مشكلة بناتي».

لم أفهم قصدها، فأوضحت والألم في نبرتها:

«أنا وأبوهم لا شيء يكدر علاقتنا، سوى مشكلتنا التي تعرفين، شيعية وسني».

راحت تشرح لي أن أي شاب يتقدم لخطبة إحدى بناتها يقف عند توزعهن بين مذهب الأب السني ومذهب الأم الشيعي، وتتندى عيناها بالدمع همست:

«كبرن وأخاف عليهن من العنوسة».

واندس شيءٌ في نبرة صوتها وهي تقول:

«البنات أنفسهن مختلفات؛ واحدة سنية والأخرى تريد أن تكون شيعية».

شكواها انحرفت بما كنت أفكر أن أقول لها. شعرتُ بها هي الأخرى منكسرة لا تدري سبيلًا يساعدها على الخروج من ورطتها. أوضحت هي أنني تحديت أسرتي وأقدمت على خطوة كبيرة جدًّا، وتلجلج حسها وهي تتمنى عليَّ الحذر وعدم الوقوع في الخطأ. وتنهض منسحبة، قالت:

«سأفرح كثيرًا يوم زواجك».

على الأقل شخص واحد من أسرتي سيفرح اليوم بزواجي، وحدها عمتي ألطاف التي تزوجت رجلًا سنيًّا، والآن بناتها يدفعن الثمن قالت إنها ستفرح.. كم يبدو عزيزًا الفرح في دنيا مليئة بالمتاعب والحزن!

بعد انتقالي إلى هُنا زادت ملاحقات مشاري واتصالاته، وتكرر طلبه:

«أودّ رؤيتك».

التقينا مساءً على الواجهة البحرية لمنطقة السالمية، في الممر المحاذي «للمركز العلمي». ألحّ هو عليَّ لمعرفة السبب الذي يدعوني لرفض استقباله في شقتي. بقيت صامتة لأني لا أدري سببًا جعلني أتخذ قراري، ودون مقدمات قلت له:

«تعالَ نذهب».

ظل لثوانٍ مُتفاجئًا وكأنه يتأكد من صدق جملتي، فأضفت مؤكِدة:

«سأسبقك لتجهيز العشاء».

حين دخل عليَّ الشقة حاملًا باقة ورد «جوري» أحمر، رأيته شخصًا آخر. وضع الورد على الطاولة، ورمى عقاله وغترته كاشفًا شعره الذي أحب، ونفخ بحرقة:

«أخيرًا!».

لم تعجبني كلمته. رحت أتابعه لأعرف ما خلفها، فسكت لفترة قبل أن يقول:

«أنا أحبك ولا يمكن أن أعيش بدونك».

بلا معنى بدت لي جملته. شيءٌ ما فيها قال لي إنها رخيصة ومستهلكة، وإنها خرجت من سطح لسانه. ولكي أغيّر الموضوع، نهضت أفتح التلفزيون وأنادي على الخادمة:

«هاتي العشاء».

تناولنا العشـاء أنـا وهو والصمت، وصور التلفزيـون البلهاء. مرَّ شـريط علاقتنا أمامي. وارتفع السـؤال جارحًا في قلبي: هل هذا ما كنتُ أطمح إليه؟ شـيءٌ ما عكّر مزاجي، وحال شعرت أنه رفع يده، قلت له:

«شكرًا على الزيارة».

نهضـت واقفة كي يفهم هو رغبتي فـي مغادرته، ولحظة أغلقت البـاب خلفه، تنفسـت مـلء صدري وكأنـي أزحت همًّـا ثقيلًا عنه، وهطلت دموعي ليرتفع نحيبي!

مـن أين تأتـي لهفتنـا المجنونة على لقـاء أحبتنا، وكيـف تخبو، ويُطفىء ماء الوجع جمرتها المتقدة؟ شـيءٌ في نظرة مشـاري وشى بـه، قـال لي إنه ما عاد ذاك الرجل الذي يعشـق نَفَـسَ كوثر، ويتفطر قلبه شـوقًا لملامسة يدها. في ذلك المسـاء، كنتُ جالسة أستحضر ملاحقاتـه لـي منذ زيارتي الأولى له في مكتبه فـي الوزارة، حين رنّ جرس الشقة. للوهلة الأولى ظننت أنه قد عاد، لكني تفاجأت بعمي باقر يقف سادًّا فتحة الباب وقد شملَ ضيق غريب وجهه:

«هلا عمي، تفضل».

قلت له مرحِّبة وخوف مفاجئ يهجم عليَّ. بادرني قاذفًا جملته:

«الله يسوّد وجهك».

احتـرت بمـاذا أردّ عليه. دار ببالي: هل كان عمي يترصد شـقتي وداهمني بعد مغادرة مشاري؟

تذكـرت الورد الأحمـر، ترددت هـل أدعوه للدخـول، أم أغلق الباب بوجهه؟ وبنبرته المتحاملة أكمل يقول:

«لا تعتقدي أنك بعيدة».

ولكي أوقفه عن أي تكمله قاطعته قائلة:

«بابي مفتوح في كل وقت».

خفـت أن ترتفع يده ويصفعني، خطوت ببطء إلى الوراء، جاعلة مسافة تفصل بيننا:

«لم أعمل خطأً».

بعـث صوتـي وقد أمسـكت الرجفـة بقلبي: مـاذا لو جـاء عمي ومشاري جالس معي؟

«أحذّرك للمرة الأخيرة».

قال بلهجة متوعدة، وأكمل:

«لن نتركك تسوّدين وجوهنا».

رمى جملته في وجهي، وانسحب تاركًا الباب مشرعًا، وأنا واقفة والرجفة في قلبي وركبتيَّ.

قبل أسـبوع، اتصل بي مشـاري يشـكو قلقـه، وأنه لـم ينـم ليلته، وسألني:

«كيف تصدقين أنني أحبك؟».

ابتسمت بيني وبين نفسي، وربما فهم هو صمتي، فقال:

«حددي اليوم ونتزوج».

بـدت جملته مسـتهلكة وبلا معنى، فأضـاف متحدثًا عن علاقته بزوجته:

«تعلمين أننا منفصلان ولو أننا نعيش في بيت واحد».

ولأني بقيت صامتة كعادتي، أكمل:

«تكلمت معها عن خطوات الطلاق».

احترت بماذا أردّ عليه. شـيءٌ ما خفـي عكّر صفو روحي وأنهى المكالمة، قلتُ بحس مغلّف بالضيق:

«شكرًا».

لمـاذا يتحول الحب لمحنة حياة؟ وكيـف بقلبين يهوى أحدهما الآخر أن يدمرا بعضهما؟

مشاري شكى لي مرة، وقد كسر الوجع نبرته:

«وضعي صعب».

سكت لثوانٍ قبل أن يضيف:

«لا أستطيع العيش بدونك، ولا..».

ترك جملته معلقة بحبال الهواء.. وبقيت أنتظره يفصح عن حرقة قلبه.

جاء لزيارتي أكثر من مرة، وأنا مصرّة على عدم استقباله..

في إحدى المرات فاجأني بمجيئه المتأخر.. جلست معه وهاجس الخوف من مجيء عمي أو ولده يسيطر عليَّ. بادرني دون مقدمات:

«أحبك، وأنا مستعد لكل شيء تطلبين».

احترت وأنا أسمعه ينطق جملته:

«هل ستُطلق زوجتك؟».

«نعم».

«متى؟».

«بانتهاء العام الدراسي للأطفال. أخاف أن تكون الصدمة كبيرة عليهم».

ألجمتني جملته، وأجهز عليَّ يُقسم وتوجع حسّه:

«والله لم أحب امرأة بحياتي كما أحببتك!».

لأول مرة أشعر أنني ضعيفة، وأنني مشتتة لا أعرف ماذا أفعل.

أنا أعجز عن الوقوف في وجه مراقبة وزيارات وتهديدات عمي باقر. وأنا ضعيفة أمام حبي لمشاري. وأنا أكره نفسي حين أفكر بضياع أطفاله.. مللت وجع قلبي، أنا، وأنا، وأنا.. فكّرت أن ألجأ لشخص أبثّه حيرتي، ولأن أمي وأخواتي تبرأن مني، وعمتي ألطاف بحاجة لمن يواسيها، لم يأتِ على بالي سوى عمو طالب، لكني

تذكـرت أنـه في المرة الأخيرة التي قابلنا في مكتبه، صارح مشـاري بضرورة أن يقرر علاقته بزوجته. ولـم يبقَ لي إلا منى. تكلمت معها أكثر من مرة، وظلت تكرر عليَّ:

«لا علاقة لكِ بزوجته، تزوجا وعيشا حياتكما».

كنتُ أعود إلى شـقتي حـال أنتهي من عملي. تقـدم لي خادمتي الفلبينيـة الأكل وبالـكاد أمـدّ يـدي إليـه. ولا أدري من أيـن جاءتها شجاعة أن تقف أمامي سائلة والتردد في صوتها:

«Madam, don't loose your boyfriend».

أسـرتني جملتها البسيطة هـي المـرأة الغريبة القادمة مـن ثقافة مختلفة. أشـعرتني بصدق مشاعرها نحوي وتعاطفها معي ومحبتها لي ومعايشتها لألمي. نظرت إليها باسمة، وقلت:

«We will marry».

كيـف يمكـن لتنفس الهـواء أن يتحول لصخر يجـرّح الروح في دخوله وخروجه؟

فكـرت أترك الكويت ودول الخليج جميعها وأرتاح من كل هذا الوجـع المر. وسـرعان ما جـاء إليَّ وجع آخر: سـوريا تتدمر، مصر تغلي، بيروت تعيش هاجس الانفجـار، وتونس والجزائر وصنعاء. فكـرت فـي لنـدن وأمريـكا.. شـعرت أنني أهلـوس، وتلسـع قلبي الفكرة: «اقطعي علاقتك به، أو اقبلي بفكرة الزواج».

عمتـي ألطـاف على غير عادتها اتصلت بي قبـل فترة بينما أنا في عملي، قالت إنها تودّ السـؤال عني والاطمئنان على أحوالي، ومسَّ نبرة صوتها شيء من تلوّن وهي تقول:

«أخواتك يسألن عنك».

«يسألن؟».

قذفتُ عليها كلمتي فلبدت خلف سكوتها، وأسألها قلت:

«يسألن منْ؟».

ظلت بصمتها لتقول بعد ثوانٍ:

«ألن تعودي إلى بيتكم؟».

استسخفت سؤالها، فأنهيت المكالمة:

«عفوًا، لديَّ اجتماع بعد قليل».

ضايقني اتصالها، صبَّ شيئًا من السواد على مزاجي وخاطري. أخواتـي يـردن لحياتـي أن تقف كـي تسـير حياتهن الزوجيـة هادئة مسـتقرة. يسـألن عن موافقتي العيش بينهن بشـروطهن البائسة! أين الخطـأ في أن أعيـش حياتي في مـكانٍ يخصني ويحتوينـي بعالمي البسـيط؟ أسـرٌ كثيرة تعيش تحت سـقف واحد ولا يجمـع بينها إلا النفور والكره والخداع والعراك اليومي!

كنتُ موزّعة بين أن أنسـى كل التفاهات التي تحيط بي وأنسـجم مـع وضعـي الجديد وأعيش يومـي بوحدتي كأهدأ مـا يكون. أو أن

أوافـق علـى الارتباط برجل لـه بيت آخر وامرأة وثلاثـة أطفال؛ كي أضفي على وجودي الأنثوي صفة الشـرعية. ولأن شـيئًا في فكري وقلبي رفض الخيار الثاني، اتصلت بمشاري:

«أرجوك لننهِ علاقتنا».

فاجأتـه جملتي ربمـا كان ينتظر مني اتصـالًا مختلفًا. ردّ بصوت متضايق:

«ماذا حصل؟».

أغلقـت تلفونـي وتمنيت لو أنني لـم أره وأتعـرف عليه. ولمت نفسـي لأني أخذتها لأهـوال بحر الوجع وجررته هـو ورائي. ولأنه يجـنّ حيـن أتصـل وأنهـي المكالمـة دون نقـاش راح يتصـل بـي، فأغلقت تلفوني، ويهزّني السؤال: أين أذهب، ولمن أشكو محنتي؟ كيف يضيق بالإنسـان العيش والمكان حتى ليشـعر أنه يكاد يختنق، وأنـه عاجز عـن التنفـس؟ أي نار حاميـة تلفح وجوهنا حين نشـعر أننـا لا نسـتطيع الوصـول لشـخص نحـب، ونسـتخلصه لأرواحنا المرهونة لعشقه؟

لاحـت لي فكـرة العودة إلى بيـت أبي، فأسـرعت أنكرها كونها أقرب إلى الجنون أو الموت! تمنيت لو أغمض عينيَّ ومعها أسـدل الستار على علاقتي بمشاري وأمحو كل شيء من قلبي وذاكرتي.

أنا كوثر، صديقاتي وزميلاتي في العمل يحسـدونني ويقلن عني إننـي ممثلة سـينما، وإن جسـمي كجسـم عارضات الأزيـاء. امرأة

أمتلك مالًا من إرث أبي، وأعيش في شقة «ديلوكس» من اختياري، وأقتني أفضل الماركات في لبسي وساعاتي وأحذيتي، وأركب سيارة «بورش» آخر موديل. وكل هذا أعجز من أن يأتي بكسرة راحة للنفس!

أنا كوثر يركض الكثير من الشباب والرجال ورائي، لكنني الآن لا أكاد أتماسك، ويكاد منشار الحزن أن يقطع أوصال روحي! دار ببالي السؤال: ما الذي يأخذنا لدروب الوحشة، وما الذي يمرغ أيامنا في طين الأسى والألم؟ وهل يمكن أن يكون الحب سببًا وراء ذلك؟

أمي صرخت بي:

«خلصوا رجال الكويت؟».

حزنت على نفسي، وآلمني أنني أنا منْ ورّط مشاري معي. أنا من فكرتُ به، وذهبت إليه أول مرة.. هذه علاقتي أنا وحين أعلن هو استسلامه وقبوله بالزواج، رحت أفرض شرطي بتطليق زوجته وتحطيم أطفاله. كرهت نفسي، وكرهت تصميمي الأعمى على المضي في هذه العلاقة البائسة. واستغربت كيف أن الوعي الإنساني يضعف ويمرض أمام الحب، وبلل وجهي الدمع وأنا أقرر: «سأقطع علاقتي به.»، لكنه هو من أصرَّ على ملاحقتي، اتصل بي مكررًا الرجاء:

«أراك آخر مرة».

حيـن تقابلنـا في مكتبي، بـدا يائسًـا، وما كاد يجلـس حتى رمى بسؤاله وضيقه:

«ماذا تريدين مني؟».

سكتُّ لا أعرف بماذا أرد على سؤاله. فردد بنبرة ذابلة:

«أنا أحبك، كيف أثبت لك ذلك؟».

ولأنني بقيت ساكتة، أكمل بانفعاله ولوعة حسّه:

«سأطلقها وسأتزوجك».

بدا بائسًا ومنهارًا وحزينًا:

«لأكن صادقًا معك».

قال بنبرة منكسرة:

«في بداية علاقتنا كنت أنوي الوصول إليك، لكني أحببتك».

رفع نحوي عينيه يخاطبني:

«ليـس سـهلًا على رجل متـزوج أن يحب امرأة ثانيـة. اختل كل شيء في حياتي. ما عدت قادرًا على التركيز في أي أمر. أجلس معها وبيـن أطفالـي فيأتي بـك خيالي، وحيـن أهرب منهم أجـيء إليك، أختنق وأنا أرى وجوه أطفالي، تظهر لي لتنادي : بابا».

وتحشـرج حسـه، فخفق قلبي. لا أدري ماذا حصل لي وأنا أرى دموعه:

«أحبك».

أي دليـل يهزّ قلب المـرأة أكثر من بكاء رجلٍ يحبها أمام عينيها؟ حاولت النهوض لاحتضانه لكني لم أستطع فأشّرت إليه:

«تعالَ».

وكالطفل نهض من مكانه، جاء إليَّ ليرمي برأسه على صدري:

«تعبت يا كوثر».

«اسكت».

وضعـت يدي على فمه لأمنعه من قول أي كلمة. بللتني دموعه، وتمنيت لو أن تلك اللحظة تمتد بي حتى الموت.

«أرجوكِ لنتزوج ونرتحْ».

دفع جملته من بين دموعه.

«Madam»..

صوت خادمتي ينتزعني من لجة أفكاري:

«قهوتك جاهزة».

الساعة السابعة والربع صباحًا. عليَّ أن أنفض أسئلة الخوف عن فراشـي، وأنهض أجهّز نفسـي بانتظار مجيء مشـاري.. أمامي أقل من سـاعتين ليمرّ علـيَّ ونذهب معًا إلى قصر العـدل، بعدها يصبح زوجي بورقة رسـمية، ويصبـح بإمكاني أن أظهر معـه في أي مكان عام ممسكة بيده، أصرخ أمام الجميع بالكلمة السحرية: زوجي!

منذ استيقظت فجرًا لا أزال خائفة، ولا يزال شيء من ضيق يمسك بي: هل سأضع اليوم حدًّا لقصتي مع مشاري؟ وكم يخيفني السؤال: هل سيأتي يوم وألوم نفسي على قراري؟ وهل سأغفر لنفسي سعيي للزواج من رجلٍ متزوج وله أطفال؟

اليوم سأقبل الزواج بمشاري لأنه يحبني، ولأنني لا أستطيع العيش بدونه. أوافق بالزواج من رجل على علاقة بامرأة أخرى.. مثلي مثل نساء كثيرات في هذا العالم يجبرهن وضعهن الأسري أو الاجتماعي على بلع الموسى، وتجرع سم الصمت على وجود العشيقة أو الزوجة الثانية! يقبلن بالخضوع المر، والقبول برجل سبق لامرأة أخرى أن اقترنت به.

اليوم سأكتب ورقة عقد قراني على رجل متزوج، وبعدها سأستقبله في شقتي وسأشرع بابها على اتساعه بينما نحن نجلس معًا، وسأصرخ في وجه أي قادم: هذا زوجي.

اليوم سنقف أنا ومشاري أمام القاضي، ومؤكد أنه، حسب الشريعة الإسلامية، سيسألني عن ولي أمري الرجل: أبي أو أخي، وسأقدم له شهادة وفاة أبي، وحصر الوراثة الذي يُثبت أن لا أخوة رجالًا لي، وسأطلب منه:

«أنت ولي أمري».

لحظتها سيكون أمر الموافقة على زواجي معقودًا بإرادته.

كم يُخيفني ويؤلمني، بعد أن تجرعت سم الوجع، وأقدمت على هجر أسرتي، أن أقف عاجزة عن تزويج نفسي بمن أحب، وسيبقى مستقبلي معلقًا بموافقة القاضي الرجل أو رفضه!

عمو طالب لن يوافق على هذه الزيجة، لكن لا عذر له. هو أب لابنتين وعليه أن يفكر بهما وكيف يمكن أن يتحطم مصيرهن لو واجهن ما أواجه. أعرف أن ابنته الكبرى الدكتورة فرح تزوجت، ولكن ابنته الصغيرة فادية مقبلة على حياة في كتم السر. فهل سيكون مثل أبي ويتنكر لمبادئه وأقواله ورواياته ويقف ضد زواجها لو تقدم لخطبتها شاب شيعي وهي الفتاة السنية؟ وكيف تراه يتصرف لو أصرّت هي على الارتباط برجل متزوج؟

حين أعود من السفر سأدعوه لزيارتي في شقتي بوجود مشاري.

سأخرج لساني للحياة التعسة التي خطفت أبي في غفلة نومه، وسأجرب مغامرة العيش كما أحلم وأشتهي مع رجلٍ أحببته وولع هو بي.

كأن شيئًا يهزني، وكأن قلبي يردد: الحياة أقصر بكثير من أن نتهيب الخوض في طين دربها اللزج!

-١٣-

كنتُ جالسًا في الغفلة والهُنا، خلف مكتبي أصيخ التركيز وساقي المنمّلة، أفكر بكوثر، وكيف تراها ستكتب نهاية قصتها، حين انتهز اللحنُ لحظة الصمت، فخفَّ آتيًا إلى قلبي:

ملبوسها النفنوف واللحميّه والثوب شاله ردفه القيطاني

ومعه جاءت مجالس حفلات النساء التي تسكن ذاكرتي. حين يفترشن الأرض على سجاد بلونين يعلقان بذهني، الأحمر والأزرق. تجلس النساء في صفين متقابلين، وتحتل صدر الجلسة نساء فرقة الغناء والدفوف بين أيديهن. وكما لو أنني أرى المكان وسط روائح الأجساد المشتعلة، أشمّ عطر الورد على ثوب أمي، أو دهن العود بشعرها. تأتيني ضجة المكان بأصوات كثيرة متداخلة، وأكاد، وأنا في هُناي الغارق بصمته، أسمع النقر الأول على الدفوف، يدوزن المكان ويحرك هدأة الأرواح، وما يلبث لحن السامري أن ينبعث من بين ضرب الدفوف والتصفيق، تتبعه الأصوات المعطرة بالشجن!

أي صـور يبعثها اللحن في رأسـي، وأنا أختلـس رقص الفتيات الأجمـل بخفر عيونهن يتهادين بأثوابهن ولفح شـعورهن؟ أي نداء يطلقه الجسد في حركته، وأي خفة تحمله للذوبان في اللحن؟

أغيـب مـع خيالي أتصور هيئـة تلك المرأة التي خاطبها الشـاعر متوسـلًا رقصها.. أي ثوب يعدل ثوب لحم الجسـد، وأي ثقل هين ذاك الذي يهتز والردف؟

الوحـدة تؤنس روح من يُـدرك كنهها، وتكون غـولًا تُخيف من يكرهها، تكشـف له عن وجه بشـع، وقد تنشب أنيابها في لحم قلبه. لكنهـا صادقتني بعد أن تأكدت من أن روحي تهفو وتسـعد بلقائها، وأن لا مكان يجمعنا ببوح كتاباتي ولذة قراءاتي سـوى غرفة مكتبي هنا في المدرسة القبلية.

كل يـوم على مـدى خمس سـنوات نجتمع أنا وهي وشـيء من الموسـيقى الهادئة، وما يلبث أن يأتي الصمت ليشاركنا، يأتي خفيفًا باسـمًا، وكعادتـي أهزُّ رأسـي أحيـي قدومه. خمس سـنوات كانت كفيلـة بتوطيـد علاقتنا، وكم همسـا بي: نحن صديقـان مخلصان.. وأبسم لهما أثني على رأيهما، قائلًا: لكل كاتب وحدته وصمته.

فـي هـذا الهُنا، فـي هـذه الغرفة الصغيـرة تُرِكـتُ وحـدي كاتبًا ومهندسًـا.. هناك من اعتقد بتجميدي، دون أن يدرك حجم الخدمة الكبيرة التي يقدمها لي!

هُنا، كتبت مجموعتي القصصية «سرقات صغيرة»، وهُنا فكّرت وخططـت واتصلت بأصدقائي لتأسـيس «الملتقـى الثقافي» ليكون

صالونًا ثقافيًّا في بيتي، وهُنا كتبت مجموعة «الكرسي»، وهُنا أعدت تصحيح ومسّ ونشـر روايتي الأولى «ظل الشمس» بطبعتها الثانية، وها أنا أوشك أن أنتهي من كتابة روايتي الجديدة.

هناك من ظَنَّ خاطئًا أنه يستطيع سـجن كاتـب بين جدران غرفة ضيقـة، دون أن يـدرك أن العالـم فضاء مفتـوح، وأنني أمتلك الوقت ومعه حرية الكتابة، وأنني سأصل بهما إلى أبعد مما يظن!

لولا هذا الهُنا الطيب، لما كنتُ أخطّ ما أنا أخطّه اللحظة!

هُنا، في غرفة مكتبي صرتُ أُمضي أسعد وأهنأ ساعات يومي.

وبينمـا أنـا في جنة هـذا الهُنا وعزلتـه، جاءني قبل أشـهر عرض طيـب من وزيـر الإعلام ووزير الدولة لشـؤون الشـباب بـأن أكون مستشارًا ثقافيًّا لوزارة الإعلام!

هُنا ألتمُّ على خلاصي.. أجتمع بقراءاتي وكتاباتي وبهما خلاص روحي!

في زيارتهما الأخيرة أكدت لي كوثر ومشاري أنهما سيتزوجان. ما شئت أن أصدمها بقولٍ يضايقها؛ لذا فضلت أن أبقي قناعتي مستورة.

كوثـر بنـت صديقي وبطلـة روايتي أزاحـت حرّ غطـاءات قلبها وكشـفت عـن خـوفٍ ووجـع روحهـا وقرارهـا، وهي عازمـة على الزواج من صديقها حتى لو بقي مرتبطًا بزوجته الأولى.

البارحـة عدتُ إلى البيت متأخـرًا، ولحظة فتحت الباب وجدت أمي جالسـة في صالة الاسـتقبال تنتظرني. هيئتها بفسـتانها الأسود

وفرق شعر رأسها المخضب بالشيب. أرعشا خوفًا مفاجئًا بقلبي، فقلت: بسم الله الرحمن الرحيم.

«تأخرت يا وليدي».

أمي، لقد صعدت روحك إلى بارئها في الثالث والعشرين من سبتمبر ٢٠٠٦، بينما كنتُ مع ابنتي فرح أثناء دراستها للماجستير في ولاية «كولورادو» الأمريكية.

«ماذا حدث؟».

«يهرب النوم مني فأبقى أنتظرك».

بررت هي ونهضت تتكئ على عصاها.. لا أكاد أصدق عينيَّ، كيف عادت أمي إلى الحياة؟ اقتربت منها والرجفة في أعضائي، مددت يدي لأتأكد من وجودها، أمسك بكفها التي أحب؛ لمساعدتها على الوصول إلى غرفتها، قالت:

«مبروك تأسيسك الملتقى الثقافي».

جملتها جعلتني أستنكر وجودها أكثر؛ فأمي امرأة أمية لا تعرف القراءة والكتابة، فكيف بها تزفّ لي تهنئة بتأسيس الملتقى؟ هل روح أمي تتبعني وتلاحقني، تحصي عليَّ أفكاري في كل منعطفات حياتي؟ كنت ممسكًا بكفها المعروقة وكأني أتأكد من وجودها، نمشي «بخطوٍ ثقيل»، وأكاد أسمع خفق قلبي بخوف مفاجأتي بحضورها، لحظة عادت تخاطبني:

«تكتب رواية جديدة؟».

زلزلتني عبارتها. تجمدت في مكاني. صعب عليَّ فهم نبرة حسّها إن كانت تدينني أو تقف معي. لكنها ضغطت يدي تسحبني معها:

«تعالَ».

وقفت أنظر إليها، فوجدتني أقف أمام زوجتي شروق وسؤالها:

«لماذا تأخرت؟».

ترددت أخبرها أنني كنتُ أرى أمي مكانها. وتخوّفت أسألها إن كانت قد أمسكت بكفي ومشينا معًا. ولأنها لاحظت اضطرابي قالت:

«ما بك؟».

«لا شيء».

أجبتها، وأخبّئ رعشة ظلت ممسكةً بقلبي، صعدنا معًا إلى غرفة نومنا.

هل تخيّلتُ أنا رؤية أمي موضي البارحة، وهل عادت روحها لنقل رسالةٍ ما إليَّ؟

يا أمي لن أوافق على زواج كوثر من مشاري؛ لأني أحبها كفرح ابنتي، ومؤكد أنني سأوافق لو أن مشاري صار حبيبًا خالصًا لها.

يا أمي لا دخل لي الآن في مصير كوثر. هي منْ كتب فصول روايتها!».

ولأني قلت جملتي الأخيرة بصوت مرتفع، انتبهت أنني جالسٌ هُنا في غرفة مكتبي أمام الكمبيوتر، وأن الوحدة صديقتي

غافيـة على المقعـد أمامي، بينما صوت مكيف الهـواء وحده يزعج هدأة الصمت.

اليـوم صباحًا، لحظة فتحت تلفوني وجـدت أكثر من اتصال قد ورد لي ليلًا من كوثر، بينما كنتُ نائمًا وجهاز تلفوني مغلقٌ. ساءلت نفسي: ماذا تريد كوثر؟ أي خبرٍ مهم كانت ستزفه إليَّ؟

كوثر ومشاري .. لا أعلم ما آلت إليه علاقتهما، ولن أكتب حرفًا واحدًا إضافيًّا عما خطته هي عن نفسها.

الكويت، ٢٠ فبراير ٢٠١٤

صدر للكاتب

- **مجاميع قصصية:**

(١) (أبو عجاج طال عمرك)، دار الآداب، بيروت ١٩٩٢

(٢) (أغمض روحي عليك)، دار الآداب، بيروت ١٩٩٥

(٣) (مرآة الغبش)، دار المدى، دمشق ١٩٩٧

(٤) (حكايا رملية)، دار المدى، دمشق ١٩٩٩

(٥) مختارات قصصية (شمس)، سلسلة آفاق عربية، القاهرة ٢٠٠٥

(٦) (سرقات صغيرة)، دار الشروق، القاهرة، طبعة أولى ٢٠١١، طبعة ثانية ٢٠١٢

(٧) (الكرسي)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٢

- كتابات روائية:

(١) (ظل الشـمس)، طبعة أولى، دار شرقيات، القاهرة ١٩٩٨، طبعة ثانية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٢

(٢) (رائحـة البحر)، طبعة أولـى، دار المدى، دمشـق ٢٠٠٢، طبعة ثانية، دمشق، ٢٠٠٦

(٣) (سـمر كلمات)، طبعـة أولى، دار المدى، دمشـق ٢٠٠٦، طبعة ثانية، دمشق، ٢٠٠٨، طبعة ثالثة، دار نوفابلس، الكويت، ٢٠١٣

(٤) (الثوب)، دار المدى، دمشق ٢٠٠٩

(٥) في الـهُنا

- دراسات:

(١) (البصير والتنوير .. رجل وقضية)، دار قرطاس، الكويت ٢٠٠٠

(٢) (إسماعيل فهد إسماعيل، كتابة الحياة وحياة الكتابة)، المؤسسة العربية للدراسات، ٢٠٠٩

(٣) (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، الكويت ٢٠٠٤

- مسرح:

(١) مسرحية (عرس النار)، دار المدى، دمشق ٢٠٠١

(٢) (المسرح في الكويت .. رؤية تاريخية)، الكويت ٢٠٠٢



(في الهُنا) رواية سيرة ذاتية حقيقية. صرخةٌ موحشة، تضجُ بوجع ووحدة صاحبها. تعري العوالم الخفية لعلاقة المرأة بالرجل في المجتمعات الخليجية. فتاة عزباء تهيم عشقاً برجل متزوج، ويكون طالب الرفاعي، شاهداً مشاركاً في معايشة منعطفات هذه العلاقة:

"أنتَ صديق بابا الأقرب، ولا أحد لي غيرك."

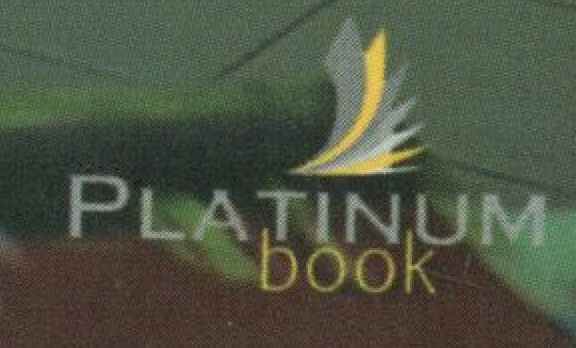
كيف يمكن لجنون حب ملتهب أن يُزهر في زمن الانتفاضات العربية والعنف والدم والموت؟

لعبة تقطيع الزمن الروائي هي العنصر الأساس في بناء رواية (في ... فالرواية بأكملها تأتي عبر جملة واحدة لبطلة الرواية "كوثر" ... على أربع مقاطع، تتهادى متماوجة مع رقصة "السامري" الكوي...

طالب الرفاعي في روايته الجديدة، يصرّ على السير في درب المغا...

طالب الرفاعي






9789996648366